

الأستاذ الدكتور
عباس عوض الله عباس

محاضرات في التفسير الموضوعي



آفاق معرفة متجددة

المحتوى

مقدمة	٩
المحاضرة الأولى: مدخل إلى التفسير الموضوعي	١٨
المبحث الأول: تعريف التفسير الموضوعي	١٨
المبحث الثاني: نشأة التفسير الموضوعي وتطوره	٢٠
المبحث الثالث: أنواع التفسير الموضوعي	٢٧
المبحث الرابع: أهمية التفسير الموضوعي	٣١
المحاضرة الثانية: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم	٣٤
المبحث الأول: تعريفها ومعناها	٣٤
المبحث الثاني: أمثلة للوحدة الموضوعية في القرآن الكريم	٣٩
المحاضرة الثالثة: الولاء والبراء في القرآن الكريم	٥٠
المبحث الأول: في معنى الولاء والبراء	٥٠
المبحث الثاني: الولاء والبراء من مقتضيات العقيدة ولوازمها	٥٤
المبحث الثالث: وجوب موالة المؤمنين	٦٢
المبحث الرابع: وجوب البراء من جميع أعداء الله وإظهار عداوتهم	٦٦
المبحث الخامس: صور من التولي المنهي عنه في القرآن الكريم	٨٤

- المبحث السادس: الفرق بين المولاة والمعاملة بالحسنى ٩٥
- ✓المحاضرة الرابعة: منهج إبراهيم، عليه السلام، في الدعوة كما عرضه القرآن الكريم ٩٨
- المبحث الأول: صفات إبراهيم، عليه السلام، وأثرها في الدعوة . ٩٩
- المبحث الثاني: أساليب إبراهيم الدعوية كما عرضها القرآن الكريم ١٠٤.
- ✓المحاضرة الخامسة: منهج القرآن الكريم في إثبات عقيدة البعث ١٢٢
- المسلك الأول: الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى ١٢٢
- المسلك الثاني: الاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيها . . ١٢٧
- المسلك الثالث: الاستدلال بخروج النبات من الأرض ١٢٨
- المسلك الرابع: الاستدلال بوقائع حصل فيها الإحياء بعد الموت . ١٣٠
- المسلك الخامس: الاستدلال بإخراج النار من الشجر الأخضر . . ١٣٣
- المسلك السادس: الاستدلال بحصول اليقظة بعد النوم ١٣٤
- المسلك السابع: الاستدلال بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء ١٣٥
- المحاضرة السادسة: مكائد الشيطان وطرق الحذر منها كما عرضها القرآن الكريم ١٣٨
- المبحث الأول: مكائد الشيطان ١٣٨
- المبحث الثاني: طرق الحيلة والحذر من الشيطان ١٤٧
- المحاضرة السابعة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم ١٥٤.
- المبحث الأول: مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم ١٥٥

- المبحث الثاني: حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٥٨
- المبحث الثالث: عواقب إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . ١٦٠
- المبحث الرابع: الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٦٣
- المحاضرة الثامنة: الجهاد في سبيل الله في القرآن الكريم ١٧٠
- المبحث الأول: فضل الجهاد والمجاهدين في القرآن الكريم ١٧٢
- المبحث الثاني: أهداف القتال في القرآن الكريم ١٧٥
- المبحث الثالث: فضل الشهداء ١٨١
- المحاضرة التاسعة: الصلاة في القرآن الكريم ✓ ١٨٤
- المبحث الأول: أدلة فرضيتها في القرآن الكريم ١٨٤
- المبحث الثاني: منزلة الصلاة في القرآن الكريم ١٨٨
- المبحث الثالث: الخشوع في الصلاة ١٨٩
- المبحث الرابع: أثر الصلاة في حياة الفرد والمجتمع ١٩١
- المبحث الخامس: الثواب العظيم لمقيمي الصلاة ١٩٣
- المحاضرة العاشرة: بر الوالدين في القرآن الكريم ١٩٨
- المبحث الأول: الإحسان إليهما ١٩٨
- المبحث الثاني: الكلمة الطيبة وحسن المعاملة ٢٠١
- المبحث الثالث: التواضع ولين الجانب ٢٠٢
- المبحث الرابع: الدعاء لهما ٢٠٣
- المبحث الخامس: حدود طاعة الوالدين ٢٠٤

المحاضرة الحادية عشرة: الصبر في القرآن الكريم	٢٠٧
المبحث الأول: مجالات الصبر	٢٠٧
المبحث الثاني: فضل الصبر وثوابه	٢١١
المبحث الثالث: من روائع أمثلة الصبر على البلاء	٢١٣
المحاضرة الثانية عشرة: أثر المعاصي على الأمم في القرآن الكريم	٢١٧
المبحث الأول: تحذير القرآن الكريم من المعاصي	٢١٧
المبحث الثاني: آثار المعاصي في القرآن الكريم	٢٢١
المحاضرة الثالثة عشرة: مثال تطبيقي للوحدة الموضوعية لبعض سور	✓ ٢٣١
القرآن الكريم	٢٣١
المبحث الأول: بين يدي السورة	٢٣١
المبحث الثاني: خصائص السورة	٢٣٢
المبحث الثالث: أهداف السورة	٢٣٣
المبحث الرابع: موضوعات السورة	٢٣٥
الخاتمة	٢٣٨
المصادر والمراجع	٢٤٦

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، نحمده تعالى خلق الإنسان، علمه البيان، ونصلي ونسلم على معلم البشرية نبينا ورسولنا محمد بن عبد الله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أما بعد

فقد جعل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم معجزة الرسول الكريم ﷺ العظمى، والحجة الدائمة على الخلق، والنور المبين للدعاة إلى يوم القيامة، يستمدون من نبعه أكثر الهداية، ويقتبسون من نوره مشاعل الهداية الدالة إلى أعظم حضارة عرفتها البشرية عبر تاريخها الطويل، والبراهين السواطع التي تبدد الشبهات، والإرشادات اليقينية التي تطفئ نار الوسواس في الصدور، ويجد كل متدبر لآيات الله في القرآن الكريم كمال الوفاء لحاجات البشر في مختلف العصور وبخاصة في الآيات التي تتحدث عن الكون والحياة والإنسان.

وإن الكلام عن إعجاز القرآن الكريم ونواحيه ليس بالأمر اليسير الهين الذي ينتهي في رسالة أو كتيب، لذا كان القرآن الكريم هو الكتاب الجامع لفروع الدين وأصوله نصاً أو استنباطاً، عقيدة وشريعة ونظام حياة، أودع

الله فيه من كنوز المعرفة وأصول العدل ومناهج الخير ما يُسعد الإنسانية، ويفتح أمامها آفاقاً رحبة في عمارة الكون، والتعارف والتعامل في ظل دستور قرآني خالد يرعى الحقوق، ويصون المواثيق والعهود، ويبشر الإنسانية المؤمنة بحسن مصيرها في الدار الآخرة، إذا هي آمنت بالله واهتدت بهداه.

وقد اهتم علماء المسلمين بتفسير كتاب الله، واستنباط أحكامه وهداياته، ففتح الله لهم من أسرار هذا الكتاب الكريم علوماً جمة وآفاقاً رحبة في جميع جوانب الكون ووجوه النشاط في الحياة؛ فهو كتاب علم وهداية، ومنهاج تربية وحضارة.

واهتدى علماء السلف من هذه الأمة في تفسير كتاب الله تعالى بهدي مدارس الصحابة، رضوان الله عليهم، التي عرفها تاريخ القرآن الكريم من خلال مدرسة الصحابي الجليل عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، في مكة، والتي تخرّج فيها كل من أئمة التابعين في التفسير، سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس، وعطاء بن أبي رباح.

ومدرسة الصحابي الجليل أبي بن كعب، رضي الله عنه، في المدينة المنورة، والتي تخرج فيها زيد بن أسلم، وأبو العالية الرياحي، ومجموعة أخرى منهم: محمد بن كعب القرظي.

ومدرسة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، في الكوفة والتي تخرّج فيها: علقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، وعامر الشعبي، وعمرو بن شرحبيل، وأبو عبد الرحمن السلمي^(١).

(١) انظر دراسات في علوم القرآن الكريم، للدكتور فهد الرومي، طباعة مكتبة التوبة، الرياض،

وزعماء هذه المدارس التفسيرية الكبرى هم الذين تحرّجوا في مدرسة النبوة، فعبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، هو الذي دعا له النبي ﷺ بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^(١). وأبيّ بن كعب، رضي الله عنه، يكفي أنه كان من كتاب الوحي الذين عهد إليهم الرسول الكريم بكتابة القرآن، ولم يكتمل نزول الوحي عليه من السماء، أما عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، فقد كان قارئ القرآن لرسول الله ﷺ والذي قال عنه: «من أحب أن يقرأ القرآن غَضّاً كما أنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد»^(٢). وعلى منهاج أئمة التفسير من الصحابة سار أئمة التفسير من التابعين فكانت أساليب التفسير المعروفة وهي:

(١) التفسير التحليلي.

(٢) والتفسير المقارن.

(٣) والتفسير الجملي أو الإجمالي.

(٤) والتفسير الموضوعي.

أما التفسير التحليلي فهو الذي يتتبع فيه المفسر الآيات حسب ترتيب المصحف، سواء تناول جملة من الآيات متتابعة أم سورة كاملة أو القرآن الكريم كله، ويبين ما يتعلق بكل آية من معاني ألفاظها ووجوه البلاغة فيها، وأسباب نزولها وأحكامها ومعناها ونحو ذلك، فهو أقدم أساليب التفسير فقد كان التفسير في نشأته الأولى يتناول الآيات المتتابعة ولا يتجاوزها المفسر إلى غيرها.

وهذا الأسلوب من التفسير هو الغالب على المؤلفات في التفسير، وأشهر

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٦٦/١.

(٢) مسند الإمام أحمد ٧/١.

التفاسير وأهمها قديماً وحديثاً، ومن ذلك تفسير جامع البيان للإمام الطبري، وفتح القدير للشوكاني، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير^(١).

والتفسير المقارن هو الذي يعتمد المفسر فيه إلى الآية أو الآيات فيجمع ما هو في موضوعها من نصوص، سواء كانت نصوصاً قرآنية أخرى أو نصوصاً نبوية أو أقوال الصحابة، رضي الله عنهم، أو أقوال التابعين والمفسرين أو الكتب السماوية الأخرى، ثم يقارن بين هذه النصوص ويوازن بين الآراء، ويستعرض الأدلة، ويبين الراجح منها^(٢).

والتفسير الإجمالي أو الجملي، هو الأسلوب الذي يعتمد فيه المفسر إلى الآيات القرآنية حسب ترتيب المصحف، فيبين معاني الجمل فيها متتبّعاً ما ترمي إليه الجمل من أهداف، ويصوغ ذلك بعبارات من ألفاظه ليسهل فهمها، وتوضح مقاصدها للقارئ والمستمع، ومن أمثلة المؤلفات بهذا الأسلوب تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن سعدي^(٣).

وأما التفسير الموضوعي، فهو أسلوب لا يفسر فيه صاحبه الآيات القرآنية حسب ترتيب المصحف، بل يجمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع فيفسرها، كتفسير القرآن بالقرآن أو تفسير آيات الأحكام، ومن أمثلته الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، والأشباه والنظائر للثعلبي، والدراسات التفسيرية كأمثال القرآن للماوردي^(٤)، وهذا الأسلوب هو موضوع بحثنا، وهو ما سنتناوله إن شاء الله تعالى بشيء من التفصيل.

(١) راجع بحوث في أصول التفسير ومناهجها للدكتور فهد الرومي طباعة مكتبة الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ، ص ٥٧ وما بعدها.

(٢) راجع المرجع السابق نفسه، ص ٥٧ وما بعدها.

(٣) راجع المرجع السابق نفسه، ص ٥٧ وما بعدها.

(٤) راجع المرجع السابق نفسه، ص ٥٧ وما بعدها.

والسبب الرئيسي الذي دفعني للكتابة عن التفسير الموضوعي هو أنه عندما طلب مني أن أقوم بتدريس مادة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم لطلاب كلية الدعوة والإعلام بجامعة أم درمان الإسلامية، ومن بعدُ طلاب الدراسات القرآنية بكلية المعلمين في بيشة، رأيت أن أعيش مع كتاب الله تعالى، وأن أقوم بقدر ما أستطيع من جهد يجمع المادة العلمية حسب المنهاج المقرر من التفسير الموضوعي.

ولعل الباحث والدارس لهذا الجانب من التفسير يجد عناءً شديداً لافتقار المكتبة الإسلامية لهذا اللون من التفسير، ومع أن تاريخ هذا العلم (التفسير الموضوعي) قديم فلا يوجد في الكتب القديمة كتاب أو مرجع يعول الإنسان عليه كثيراً، ومع ظهور هذا المصطلح حديثاً فإنك لا تجد إلا متفرقات هنا وهناك، لأن المفسرين للقرآن الكريم غلب على تفسيرهم جمع آيات القرآن الكريم وسوره حسب ترتيب المصحف، وقاموا بتفسيره، كما أن الذي كتبه العلماء القدماء والمحدثون من موضوعات مثل: الإعجاز، والأشباه والنظائر، والناسخ والمنسوخ، والجدل، والأمثال، وأسباب النزول ما هي إلا مباحث من علوم القرآن الكريم، وليست تفسيراً موضوعياً مع وجود صلة بين تلك الموضوعات والتفسير الموضوعي بوجه من الوجوه.

ومن هذا المنطلق رأيت أن أقوم بدراسة متواضعة لهذا اللون من التفسير محاولاً تغطية بعض الجوانب الهامة فيه خدمة لكتاب الله سبحانه وتعالى في المقام الأول، ثم لإفادة طلاب العلم منه مما جعلني أسميه (محاضرات في التفسير الموضوعي) فقد كانت المحاضرة الأولى بعنوان: مدخل إلى التفسير الموضوعي، فشملت تعريفه ونشأته وتطوره وأنواعه وأهميته.

والمحاضرة الثانية جعلتها في الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم تعريفها، ومعناها، وأمثلة لها، ومن ذلك الوحدة الموضوعية لبعض سور القرآن الكريم.

وكانت المحاضرة الثالثة في الولاء والبراء في القرآن الكريم، وشمل ذلك عدة مباحث: المبحث الأول: الولاء والبراء من مقتضيات العقيدة ولوازمها، والمبحث الثاني: وجوب موالة المؤمنين، والمبحث الثالث: وجوب البراء من جميع أعداء الله وإظهار عداوتهم، كالكفار والمشركين وأهل الكتاب من يهود ونصارى والمنافقين والمحادين لله ورسوله، ولو كانوا ذوي قربى، والمبحث الرابع: تحدثت فيه عن صور من التولي المنهي عنه في القرآن الكريم، كالحبة والمودة واتخاذهم أنصاراً وأعواناً، والإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر أو التحاكم إليهم أو الركون إليهم أو اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، أو طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون والتشبه بهم، أما المبحث الخامس: فقد تناولت فيه الفرق بين الموالة والمعاملة بالحسنى وشيئاً من صور المعاملة الجائزة.

أما المحاضرة الرابعة فقد جاءت عن منهج إبراهيم، عليه السلام، في الدعوة كما عرضه القرآن الكريم، وشمل ذلك الحديث عن بعض صفات إبراهيم، عليه السلام، من أنه كان أمةً قانتاً لله حنيفاً، شاكراً لنعم ربه، أواهاً حليماً، خليلاً، سخياً وكرماً وبراً بأبيه، وصبره وتحمله وتوكله وشجاعته، وأثر ذلك في دعوته إلى الله تعالى، كما تناولت أساليب إبراهيم النظرية في الدعوة إلى الله، كالمناظرة والمحااجة والمعاريض والاستعطاف واستعارة الخصم، والأساليب العملية كالقدوة والبدء بالأهم، والبدء بالأقربين، واللين أولاً ثم الشدة والتحدي والمفاصلة والدعاء والتضرع إلى الله وتحطيم الأصنام والهجرة وبناء البيت والمبادرة بامثال أمر الله بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام.

أما المحاضرة الخامسة فكان عنوانها منهج القرآن في إثبات عقيدة البعث بعد الموت، ولقد سلك القرآن في ذلك مسالك تجمع بين الجوانب الفطرية والعقلية والحسية، كالاستدلال على البعث بالنشأة الأولى، والاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيهما، والاستدلال بخروج النبات من الأرض، والاستدلال بوقائع حصل فيها الإحياء بعد الموت في الحياة الدنيا، كصاحب القرية، وإحياء الطيور لإبراهيم، عليه السلام، والملا من بني إسرائيل، وقوم موسى السبعين، والقتيل الذي ضرب بعضو من أعضاء البقرة، وكذلك الاستدلال بإخراج النار من الشجر الأخضر، والاستدلال بحصول اليقظة بعد النوم، والاستدلال بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء.

وجاءت المحاضرة السادسة في الحديث عن مكائد الشيطان للإنسان، وطرق الحيلة والحذر كما عرضها القرآن الكريم، وذلك من ترسيته الباطل، وتسميته الأمور بغير اسمها، والوعد والتمني، وإظهار النصيح للإنسان، والعمل على إفساد الإنسان ما فيه الخير والصلاح، وتخويف المؤمنين من أوليائه، وإلقاء الشبهات، والخمر والميسر والسحر، ومن طرق الحيلة والحذر: الالتزام بالكتاب والسنة والالتجاء إلى الله والاحتماء والاستعاذة من الشيطان بكثرة الذكر حتى يخنس الشيطان ويخفي من قلب المؤمن.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جعلناه عنواناً للمحاضرة السابعة، فبيناً أولاً مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم كما وقفنا على حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعواقب إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصفات التي ينبغي أن يتصف بها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن تلك الصفات العلم والعمل بما يقول والصبر والرفق واللين والتيسير، والتبشير.

أما المحاضرة الثامنة فتحدثت عن الجهاد في الإسلام من خلال سور القرآن الكريم، وشمل ذلك الحديث عن فضل الجهاد والمجاهدين وأهداف القتال في القرآن الكريم وفضل الشهداء.

أما الصلاة في سور القرآن الكريم فقد كانت موضوع محاضرتنا التاسعة، فتناولنا أدلة فرضيتها في القرآن الكريم، ومنزلتها فيه، والخشوع فيها والمحافظة عليها والمداومة فيها، وأثر الصلاة في حياة الفرد والمجتمع، وما أعدّه الله من الثواب للمقيمين للصلاة في القرآن الكريم.

وجعلنا برّ الوالدين محاضرتنا العاشرة، فبينّا عناية القرآن الكريم بالوالدين وبيان حقوقهما بالإحسان إليهما، وبالكلمة الطيبة، وحسن المعاملة، وبالتواضع ولين الجانب، والدعاء لهما، وبطاعتهما في غير معصية الله.

أما المحاضرة الحادية عشرة فقد تحدثنا فيها عن الصبر في القرآن الكريم متناولين مجالات الصبر من قيام بالواجبات الدينية ومخالطة الناس والجهاد في سبيل الله والدراسة والبحث العلمي، كل تلك الجوانب تحتاج إلى صبر جميل، وبينّا فضل الصبر وثوابه، وروائع أمثلة الصبر على البلاء، وأخذنا نموذجين على ذلك من القرآن الكريم هما نبي الله إبراهيم ونبي الله أيوب عليهما وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم إمام الصابرين والمجاهدين.

أما أثر المعاصي على الأمم فجعلناه موضوع محاضرتنا الثانية عشرة في محاضراتنا في التفسير الموضوعي، فتناولنا هذا الموضوع الهام من خلال تحذير آيات القرآن الكريم من المعاصي، وتعرضنا لآثار المعاصي في القرآن الكريم من زوال النعمة، ومحو البركة من الأرض، وزوال الأمن والعقوبة والهلاك أعادنا الله منها.

وجاءت المحاضرة الثالثة عشرة والأخيرة في التطبيق العملي للوحدة الموضوعية في سور من القرآن، وشمل ذلك الحديث عن الوحدة الموضوعية في سورة النور.

وبعد: فعلى الرغم من تلك المحاضرات التي ألقيتها على طلابي عدة سنوات إلا أنني أقول: إنها لم تحصر كل ما تعلق بآيات التفسير الموضوعي في القرآن الكريم، لأن البحث في موضوعات آيات القرآن وسوره مرتبطة بعجائب القرآن ومعجزاته، فهذا مداد الله الذي لا تنفد كلماته، إلا أننا قمنا بتفسير الآيات التي جمعناها في وحدة موضوعية معينة تفسيراً يفهم منه المراد بتلك الوحدة المجموعة من الآيات، كما قمنا بدراسة كل موضوع على أنه وحدة متكاملة، واصطحبنا الاستدلال بالسنة ما أمكننا ذلك.

والله أسأل أن يغفر لنا الخطأ والزلل في سِفَرنا هذا، وأن يثبتنا على الصواب الذي وفقنا إليه خدمة لكتابه العزيز هذا والله أعلا وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الراجي لعفو ربه أ. د/ عباس عوض الله عباس

بيشة: كلية المعلمين في العام الدراسي ١٤٢١ / ١٤٢٢ هـ

المحاضرة الأولى

مدخل إلى التفسير الموضوعي

المبحث الأول

تعريف التفسير الموضوعي

إن كلمة التفسير الموضوعي تتألف من جزأين رُكْباً تركيباً وصفيّاً، فلا بد من تعريف كل جزء من هذين الجزأين.

فالتفسير لغة: من القَشَر وهو الكشف والبيان وإظهار المعنى المعقول والتفسير مبالغة من القَشَر^(١)، ويقال أيضاً: أسفر الصبح إذا بان ووضح.

والتفسير في اصطلاح الشرع هو عبارة عن الكشف عن معاني آيات القرآن الكريم والغوص في أعماقها للوصول إلى مراد الله تعالى منها بقدر طاقة البشر^(٢).

أو هو علم يكشف به عن معاني آيات القرآن وبيان مراد الله تعالى منها حسب الطاقة البشرية^(٣).

(١) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص ٥٧١.

(٢) دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د. زاهر عواض الألمعي، ص ٧.

(٣) المدخل إلى التفسير الموضوعي، د. عبد الستار سعيد، ص ٢٣، ٣٠.

وكلمة موضوعي في اللغة: الموضوع لغة من الوضع، وهو جعل الشيء في مكان ما، سواء كان ذلك بمعنى الخط والخفض أم بمعنى الإبقاء والتثبيت في المكان، يقال ناقة واضعة: إن رعت الحمض حول الماء ولم تبرح، وقيل: وضعت تضع وضيعة فهي واضعة، وكذلك موضوعة، يتعدى ولا يتعدى، وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي، لأن المفسر يرتبط بمعنى معين لا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي التزم به^(١).

وفي الاصطلاح قضية أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة أو السلوك الاجتماعي أو مظاهر الكون تعرضت لها آيات القرآن الكريم. أما تعريف المصطلح (التفسير الموضوعي) بعد أن أضيفت كلمة تفسير إلى موضوعي صارت علماً على هذا الفن بعد أن ركبت معها وصارت كلمة واحدة، فالتفسير الموضوعي عبارة عن جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد مشتركة في الهدف وترتيبها على حسب النزول كلما أمكن ذلك، ثم تناولها بالشرح والتفصيل وبيان حكمة الشارع في شرعه وقوانينه مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم والكشف عما يمكن أن يكون قد أثير حوله من شبه الضالين والملحدين من أعداء الدين^(٢).

أو هو بعبارة موجزة، التفسير الموضوعي هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال آيات أو سورة أو أكثر^(٣).

ولعل هذا التعريف المختصر هو الأرجح لخلوه من التكرار والشرح والتوضيح كما في التعريف الأول.

(١) مباحث في التفسير الموضوعي د. مصطفى مسلم، ص ١٥.

(٢) انظر التفسير الموضوعي، د. محمد القاسم، ص ٧، ٨.

(٣) انظر المدخل إلى التفسير الموضوعي، د. عبد الستار سعيد، ص ٢٠.

ويرى بعض العلماء أن التفسير الموضوعي يطلق ويراد به أمران بينهما ارتباط من بعض الوجوه.

الأول: جمع الأشباه والنظائر في القرآن الكريم حسب مادة الكلمة اللغوية، ثم ترتيبها ترتيباً معجمياً، ككتاب (إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم للفقهاء الدامغانى) وكتاب (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم لمقاتل بن سليمان البلخي).

الثاني: ذكر الموضوع ثم جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن مما له علاقة به، سواء اشتركت معه في اللفظ أو المعنى أم ارتبطت بالموضوع ارتباطاً قوياً ولو من بعض الوجوه، وذلك مثل (موضوع المرأة في القرآن الكريم) فتجمع الآيات التي تحدثت عن المرأة في الزواج والطلاق والحضانة والميراث والعلاقة الزوجية وغير ذلك مما يتعلق بشؤون المرأة كما تناولته الآيات القرآنية^(١).

وهناك موضوعات كثيرة في القرآن الكريم لا حصر لها كما أشرت إلى ذلك في مقدمة الكتاب، ومن كل ما تقدم من حديث فإنه يمكن أن نعرف التفسير الموضوعي بقولنا: هو جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن الكريم المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية.

المبحث الثاني

نشأة التفسير الموضوعي وتطوره

يرى البعض أن التفسير الموضوعي كان متداولاً منذ عهد الرسول الكريم ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، وإن لم يُعرف بهذا الاسم أو المصطلح^(٢). (التفسير الموضوعي).

(١) يتصرف من دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور الأنعمي، ص ٨ وما بعدها.

(٢) انظر أصول التفسير ومناهجه للدكتور فهد الرومي، ص ٦٣.

إلا أن البعض يرى أن هذا العلم لم يعرف إلا في القرن الرابع عشر الهجري، عندما قررت هذه المادة ضمن مواد قسم التفسير بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر، إلا أن لبنات هذا اللون من التفسير وعناصره الأولى كانت موجودة منذ عصر التنزيل في حياة رسول الله ﷺ^(١).

ومما يدل على ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢/٦] شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليست الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣/٣١] إنما هو الشرك»^(٢).

وروى البخاري أن رسول الله ﷺ فسر مفاتيح الغيب في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩/٦] فقال: الغيب خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤/٣١]^(٣).

ومن هذا القبيل ما كان يلجأ إليه الصحابة، رضوان الله عليهم، من الجمع بين الآيات القرآنية التي يظن بها بعضهم التعارض، كما روى البخاري قال: وقال المنهال عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس، رضي الله عنهما: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف علي، قال: ﴿فَلَا أَشَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمِيذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١/٢٣] ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصفات: ٢٧/٣٧] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾

(١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم، ص ١٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير ٢٠/٦ وصحيح مسلم كتاب الإيمان ٨٠/١.

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير ١٩٣/٥.

[النساء: ٤٢/٤] ﴿وَاللَّهُ رَئِيسًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣/٦] فقد كتبوا في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿مَأْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧/٧٩] إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [٢٠] [النازعات: ٣٠/٧٩] فذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩/٤١] إلى قوله تعالى: ﴿طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١/٤١] فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض ودحيتها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله تعالى ﴿دَحَاهَا﴾^(١).

وقد وضع العلماء بعد ذلك قاعدة في أصول التفسير بضرورة العودة إلى القرآن الكريم نفسه لمعرفة تفسر آية ما، فما أجمل في مكان فُصِّل في مكان آخر، وما أطلق في سورة مقيد في سورة أخرى، يقول ابن تيمية رحمه الله: «... إن أصح الطرق في ذلك - أي في تفسير القرآن - أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر»^(٢).

والمثال على ذلك قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النحل: ١١٨/١٦] فقد أفادت الآية الكريمة أن ما حرم على اليهود قد سبق أن قصه على نبيه مفصلاً في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي ظُفْرِ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦/٦].

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير ٣٦/٦.

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، تحقيق عدنان زرزور، ص ٩٣.

والمثال الثاني ما يتعلق بالمحرمات من بهيمة الأنعام، فقد جاءت مجملة في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١/٥]، وقد جاء التفصيل على ما حرم من بهيمة الأنعام على هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥/٦].

وقد جمع الفقهاء هذه الآيات ذات الصلة بموضوع واحد في كتبهم الفقهية، فجمعوا ما يتعلق بالوضوء والتميم تحت كتاب الطهارة، واستنبطوا منها الأحكام الخاصة بها، كما جمعوا من الآيات ما ورد في الصلاة في كتاب الصلاة، وما يتعلق بآيات الصدقات والمصارف والزكاة وأنواع المال التي تخرج منها الصدقة تحت كتاب الزكاة، فيعد كل ذلك لوناً من ألوان التفسير الموضوعي في مراحل الأولى^(١).

كما اتجهت الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم اتجاهاً لغوياً بتتبع الألفاظ القرآنية ومحاولة معرفة مدلولاتها المختلفة ككتاب الأشباه والنظائر في القرآن الكريم لمقاتل بن سليمان البلخي، كما ألف الإمام علي بن المديني شيخ الإمام البخاري، والمتوفى سنة ٢٣٤هـ في أسباب النزول، وأبو بكر الجصاص المتوفى سنة ٣٧٠هـ كتابه أحكام القرآن، وأمثال القرآن الكريم للماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ، وأقسام القرآن لابن القيم المتوفى سنة ٧٥١هـ، وهذه الكتب كلها جانب في التفسير الموضوعي في ألوان مختلفة^(٢).

واستمر الأمر كذلك إلى عصرنا الحاضر حيث توجهت أنظار الباحثين إلى هدايات القرآن الكريم في الاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية والعلوم

(١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم، ص ١٩.

(٢) انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم، ص ٢٠.

الكونية والطبيعية، فنجد مؤلفات مثل الإنسان في القرآن، والأخلاق في القرآن، والصبر في القرآن، واليهود في القرآن، والرحمة في القرآن، وكتاب المستشرق الفرنسي جول لابوم (تفصيل آيات القرآن الكريم) ومن خلال تصفحك لأبواب هذا الكتاب وفروعه المختلفة كالتاريخ والشريعة والتجارة والعلوم والفنون، فهو بهذا يعدّ لمّ شتات موضوع من الموضوعات القرآنية^(١).

وإذا تتبعنا التفاسير نجد في بعضها الاتجاه إلى التفسير الموضوعي ولو من بعض الوجوه، كتفسير ابن كثير رحمه الله فنجده يجمع كثيراً من الآيات التي ضرب فيها المثل كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦/٢] فيقول: «فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت»^(٢)، فهذه الأمثال كلها تكلمت على موضوع واحد هو قدرة الله تعالى.

ومن تلك النماذج القديمة للتفسير الموضوعي كتاب التبيان في أقسام القرآن، والناسخ والمنسوخ، في موضوعات متعددة من القرآن، كما ظهرت بجوار التفاسير الكاملة للقرآن أنواع أخرى من المؤلفات في موضوعات القرآن الكريم، كالمجاز في القرآن، ومجاز القرآن، والقراءات وما يتعلق بها، واستمرت هذه الدراسات لتصب في لون جديد من ألوان التفسير في عصرنا الحاضر، وهو ما عرف بالتفسير الموضوعي ككتاب الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا، ودستور الأخلاق للدكتور محمد عبد الله دراز، وأثر التربية في

(١) انظر دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور زاهر الألمعي، ص ١٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٦٤ - ٦٥.

القرآن لمحمد الشرقاوي، والتفسير الموضوعي لبعض سور القرآن للدكتور محمد البهي.

وتطور التفسير الموضوعي حتى أصبح علماً يقصده الباحثون متناولين فيه كل ما يتعلق بموضوعات القرآن الكريم.

ولقد اهتم بالتأليف في موضوعات القرآن الكريم عدد من العلماء على اختلاف عصورهم ومذاهبهم واهتمامهم كما سنرى:

أولاً: فقد أُلّف في موضوع الناسخ والمنسوخ كل من:

(١) قتادة بن دعامة السدوسي المتوفى سنة ١١٨ هـ.

(٢) أبو عبيد القاسم المتوفى سنة ٢٢٤ هـ.

(٣) أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ.

ثانياً: وأُلّف في معاني القرآن الكريم:

أبو زكريا الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ.

ثالثاً: وأُلّف في غريب القرآن الكريم:

(١) أبو بكر السجستاني المتوفى سنة ٣٣٠ هـ.

(٢) الراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٣ هـ.

رابعاً: وأُلّف في مشكل القرآن:

ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ.

خامساً: وأُلّف في مجاز القرآن الكريم:

(١) أبو عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ هـ.

(٢) الشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ هـ.

سادساً: وألف في إعجاز القرآن الكريم:

- (١) الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ.
- (٢) الرماني المتوفى سنة ٣٨٦ هـ.
- (٣) الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ.
- (٤) الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ.
- (٥) الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ وغيرهم كثير.

سابعاً: وألف في أقسام القرآن:

- ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٢١ هـ.
- ثامناً: وألف في أسباب النزول:

- (١) علي بن المديني المتوفى سنة ٢٣٤ هـ.
 - (٢) أبو الحسن الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨ هـ.
 - (٣) الإمام السيوطي بالإضافة لكتابه القيم الإتقان في علوم القرآن.
 - تاسعاً: وألف في تناسب الآيات والسور البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ هـ.
- إن كل تلك المؤلفات أسهمت بشكل فاعل في نشأة التفسير الموضوعي بمفهومه الشامل^(١).

(١) راجع دراسات في التفسير الموضوعي لقصص القرآن للدكتور أحمد جمال العمري، ص ٥٠ وما بعدها.

المبحث الثالث

أنواع التفسير الموضوعي

ينقسم التفسير الموضوعي إلى ثلاثة أنواع رئيسة^(١):

الأول: أن يتتبع الباحث كلمة من كلمات القرآن الكريم، ويجمع الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، ثم يقوم بتفسيرها واستنباط دلالاتها واستعمالات القرآن الكريم لها.

وقد اهتمت بهذا النوع من التفسير كتب الأشباه والنظائر مع وقوفها عند دلالة الكلمة من غير ربط بين مواضع ورودها واستعمالاتها في كل موضع، فلم يتعد ذلك كله الدلالة اللفظية.

ثم اتسع هذا اللون من التفسير، فتتبع المفسرون الكلمة، وحاولوا الربط بين دلالتها في مختلف المواضع، وأظهروا بهذه الطريقة معاني جديدة، وألواناً من البلاغة، ووجوهاً من الإعجاز القرآني، واستنبطوا دلالات قرآنية دقيقة لا تظهر بغير هذا المسلك. ومن أمثلة المؤلفات على هذا النوع: كلمة الحق في القرآن الكريم للشيخ محمد عبد الرحمن الراوي، والمصطلحات الأربعة في القرآن الكريم «دلالة الإله - الرب - العبادة - الدين» للشيخ أبي الأعلى المودودي، والحمد في القرآن الكريم للدكتور محمد محمد خليفة، ومن مفردات القرآن «المنافقون» للدكتور محمد جميل غازي، وتأملات حول وسائل الإدراك في القرآن الكريم (الحواس - القلب - الفؤاد) للدكتور محمد الشرقاوي، وكتاب الأمة في الدلالة العربية والقرآنية للدكتور أحمد فرحات.

(١) بحوث في أصول التفسير ومناهجه للدكتور فهد الرومي، ص ٦٦ وما بعدها.

الثاني: جمع الآيات القرآنية التي تتناول قضية واحدة بأساليب مختلفة عرضاً وتحليلاً ومناقشة وتعليقاً وبيان حكم القرآن فيها.

والمفسر يجعل الموضوع ذاته هم الأول فلا يشتغل بذكر القراءات، ووجوه الإعراب، وصور البلاغة إلا بمقدار صلتها بما تخدم الموضوع الذي اختاره، وهذا النوع هو أشهر أنواع التفسير الموضوعي وأكثرها تأليفاً ودراسة، والمؤلفات في هذا النوع كثيرة قديماً وحديثاً، مثل إعجاز القرآن، والناسخ والمنسوخ، وأحكام القرآن، وأمثال القرآن، وجدل القرآن، وبلاغة القرآن، وفي العصر الحديث أضيفت إلى هذه العلوم موضوعات اجتماعية واقتصادية وسياسية وغير ذلك، كآيات الجهاد في القرآن الكريم لكامل سلامة، والمال في القرآن لمحمود غريب، والقرآن والطب لمحمد وصفي، ودستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز وموضوعات أخرى كثيرة.

النوع الثالث: هو تحديد الموضوع الذي تتناوله سورة قرآنية واحدة ثم دراسة هذا الموضوع من خلال تلك السورة وحدها، فدائرة هذا النوع أضيق من النوع الثاني، ومن المعلوم أن لكل سورة من السور القرآنية شخصيتها المستقلة، وأن لها هدفاً واضحاً ترمي إلى إيضاحه وبيانه، وإدراك هدف السورة يكشف للباحث معاني دقيقة ومناسبات لطيفة وصوراً بليغة.

وممن تميز تفسيره بالعناية ببيان مقاصد السور وأهدافها الأستاذ سيد قطب - تقبله الله ورحمه - حيث التزم أن يقدم لكل سورة مقدمة يبين أهدافها، وينطلق في تفسيرها على هذا المحور، مما أعطى تفسيره الظلال صبغة فريدة.

ومن المؤلفات في هذا النوع من التفسير: تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام للدكتور إبراهيم كيلاني، ونماذج من الحضارة القرآنية في سورة

الروم لعبد المنعم الشفيح، وقضايا العقيدة في ضوء دراسة سورة ق للأستاذ كمال محمد عيسى، وقضايا المرأة في سورة النساء للدكتور محمد يوسف، وسورة الواقعة ومنهجها في العقائد للدكتور محمد غريب، والوحدة الموضوعية في سورة يوسف للدكتور حسن محمد باجودة، والوحدة الموضوعية في سورة الأنعام للدكتور عباس عوض الله.

ومن هنا يتضح لنا أن التفسير الموضوعي من أهم أساليب التفسير، وله مزايا عديدة وكثيرة.

ومما تقدم ذكره يتضح لنا أن أنواع التفسير تنحصر في ألوان ثلاثة. فاللون الأول: هو الذي يتبع فيه الباحث لفظة من كلمات القرآن الكريم ثم يجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية ومن تفسيرها يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها، وذلك بمعنى كلمة (الخير) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢/٢] يعني من مال، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣/٨] يعني لو علم الله فيهم إيماناً، والخير بمعنى الإسلام في قوله تعالى: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥/٢] والخير بمعنى العافية في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧/٦] والخير بمعنى الأجر في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦/٢٢] والخير بمعنى الطعام: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤/٢٨] يعني الطعام، والخير بمعنى الظفر والغنيمة كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥/٣٣] يعني ظفراً وغنيمة، فبقيت الكلمة في دلالة اللفظ المفرد دون استنباط الدلالات التوجيهية القرآنية.

أما اللون الثاني: والذي يتعلق بتحديد الموضوع بما عرضه القرآن الكريم له بأساليب متنوعة في العرض والتحليل والمناقشة والتعليق، وذلك بتتبع الموضوع من خلال سور القرآن الكريم، ويستخرج الآيات التي تناولت الموضوع، ثم يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع، وينسق عناصر الآيات، ثم يقسم الموضوع إلى أبواب وفصول ومباحث، متجنباً التعرض للأمور الجزئية في تفسير الآيات من القراءات والإعراب إلا بمقدار ما يحتاج إليه ويهتم ببيان مقاصد الآيات والحكمة الإلهية في عرض الموضوع بأساليب معينة وألفاظ محددة.

وهذا اللون هو أقرب الألوان لما تحتويه كلمة «تفسير موضوعي» من معنى.

أما اللون الثالث: فهو الهدف الأساسي في السورة الواحدة، ويكون هذا الهدف هو محور التفسير الموضوعي في السورة، وطريقة البحث في هذا اللون هو أن يستوعب الباحث هدف السورة، ثم يبحث عن مميزات السورة وفضلها وأسباب نزولها، ويضيف إليها الأساليب القرآنية في عرض الموضوع والمناسبات بين مقاطع الآيات في السورة، مما يجعل لكل سورة شخصيتها المستقلة، فالسورة المكية تعرض أسس العقيدة، والمدنية تبرز أصول الأحكام الشرعية، ولم يظفر هذا اللون من التفسير الموضوعي عند قدماء المفسرين، بل جاء في أثناء تفاسيرهم، ولكنه برز بصورة واضحة عند المحدثين وخاصة في عصرنا الحاضر^(١).

والحديث عن أنواع التفسير الموضوعي يقودنا للتحدث عن صلة التفسير الموضوعي بالأنواع الأخرى من التفسير (تحليلي - جملي - مقارن) لأن مجال البحث واحد هو كتاب الله سبحانه وتعالى، فالتفسير التحليلي لا يستغني

(١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم، ص ٢٥ وما بعدها.

عنه الباحث في التفسير الإجمالي أو الموضوعي أو المقارن، لأن التفسير التحليلي ينصب في معرفة دلالة الكلمة اللغوية والشرعية والربط بين الكلمات في الجملة وبين الجمل، وكذلك لمن أراد تناول الآيات وتفسيرها بالأسلوب المقارن بين المفسرين ليحكم على صواب منهج المفسر، فلا غنى للباحث في التفسير الموضوعي عن الأنواع المتقدمة من التفسير، لأن التفسير الموضوعي هو ثمرة أساليب التفسير مجتمعة، إذ لا بد من الإحاطة بأنواع التفسير لمن أراد أن يقيم بنيانه على التفسير الموضوعي للقرآن الكريم^(١).

المبحث الرابع

أهمية التفسير الموضوعي

تكمن أهمية الحاجة إلى التفسير الموضوعي في مجتمعاتنا المعاصرة أكثر من أي وقت مضى، وذلك لبروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية، وانفتاح ميادين للنظريات العلمية الحديثة، حيث لا يمكن تغطيتها وإيجاد الحلول الصحيحة لها إلا باللجوء إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

وذلك من خلال معرفة الهدايات القرآنية وإرشادات السنة النبوية بحيث تكون للمفسر ملكة لإدراك مقاصد القرآن الكريم في هذا الصدد، وبمنظار القرآن الكريم ينظر إلى حل المشكلات المستجدة، فيصل الباحث في التفسير الموضوعي من خلال تلك الهدايات إلى أنوار كاشفة ترسم لنا طريق المعرفة، وتحدد لنا معالم تقويم كل ما استحدث من جديد، لذا فإنه لا يمكن أن نجابه مشاكل العصر ومعطيات الحضارة إلا بأسلوب الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم الذي هو أسلوب التفسير الموضوعي.

إن تخصيص موضوع معين من خلال النصوص القرآنية ودراسته من جميع

(١) راجع المرجع السابق، ص ٥٢ وما بعدها.

أطرافه من أسباب نزول وتحديد المرحلة التي نزلت فيها الآيات من معالجة القضايا، هياً للموضوع مناخاً علمياً لدراسة الموضوع بعمق وشمولية تثري المعلومات، وتبلور القضايا، وتبرز المعالم.

ومثل هذا العمق والتوسع لإبراز معالم الموضوع لا يتيسر للباحث في أي نوع من أنواع التفسير التحليلي أو الإجمالي أو المقارن، بل نجد أن التفسير الموضوعي هو الأسلوب الأمثل في بحث مثل هذه الأمور^(١).

ومن أهمية التفسير الموضوعي أن الباحث فيه يستطيع أن يبرز جوانب جديدة من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه، ويجد أهل الاختصاص في كل فن أن المعجزة الخالدة الباقية تقيم الحجة على الأجيال، وأن في القرآن كفاية عن كل شيء ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

وتكمن أهمية التفسير الموضوعي في تأهيل الدراسات القرآنية، وتصحيح مسارها، فقد نالت بعض العلوم القرآنية حظاً وافراً من جهود العلماء وصنفت فيها عشرات المصنفات مثل العلوم المتعلقة بالجوانب اللغوية، والدراسات الفقهية لآيات الأحكام، لكن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم برز إلى الساحة الإنسانية حديثاً فهو يحتاج إلى الضبط بقواعد العلم المستمدة من هداية القرآن الكريم للبعد عن الإفراط فيه بمعاملة الآيات القرآنية معاملة العلوم التجريبية من علوم الفلك والطبيعة والإنسان.

والتفسير الموضوعي يعطي مدأً جديداً لانتشار تعاليم هدي القرآن كما أنه يفسح المجال للدارسين في شتى التخصصات ليحاول كل واحد منهم فهم تخصصه من خلال الهدى القرآني بصورة أعمق وأدق، فرجل الفقه يعنى

(١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم، ص ٣١.

بآيات التشريع والأحكام والحدود، ورجل الاقتصاد يعنى بآيات المال والإنتاج والتوزيع والإنفاق، ورجل الفلك أو الفيزياء يهتم بالآيات الكونية، ورجل التربية يعتمد على آيات التوجيه والإرشاد والقصص، وهكذا يعنى كل متخصص بموضوع تخصصه ومجال اهتمامه، ويركز عليه ويجد فيه بكل ما أوتي من علم وفق قواعد التفسير المعتمدة، كما أن تتابع هذا اللون من التفسير أو الدراسة كفيلا بأن يبين للناس لوناً جديداً من الإعجاز، يتمثل في معنى القرآن لسعة القرآن وما احتوته الموضوعات القيمة والمختلفة، مما يجعل للتفسير الموضوعي أهمية قصوى في عصرنا الحاضر^(١).

إن التفسير الموضوعي منهج يغطي كل تلك المجالات المختلفة، ويؤصل للعلوم، ويضع الأسس والضوابط لها، فيمكن لمن تناول التفسير الموضوعي أن يستشف من النصوص القرآنية هدايات القرآن في كافة المجالات المختلفة، وليست هنالك من وسيلة للوصول إلى تلك الأهداف إلا من خلال وضع نماذج لهذه العلوم، وبيان ضوابطها من خلال التعامل مع الآيات الكريمة وفق منهج التفسير الموضوعي الذي يجعل السورة القرآنية وحدة متكاملة، هدفها واحد وإن تعددت الموضوعات، فهي تدور حول الغرض الأساسي، وأن تجمع الآيات ذات الهدف المشترك، وترتب على حسب النزول، وتتناول بالشرح والبيان والتعليق والاستنباط مع الإحاطة بكل جوانب الموضوع، كما ورد في القرآن الكريم بقصد الوصول إلى الغاية من البحث القرآني، وإفادة المجتمع الإسلامي منه، ليخرج الموضوع في صورة متكاملة تامة، ويكون هدف الباحث في ذلك إبراز محاسن القرآن الكريم^(٢).

من كل ذلك يتبين لنا أهمية التفسير الموضوعي في تفسير القرآن الكريم.

(١) بتصرف من دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور زاهر الألعي، ص ٢١.

(٢) انظر التفسير الموضوعي للدكتور محمد القاسم، ص ١٢ - ١٩.

المحاضرة الثانية

الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم

المبحث الأول

تعريفها ومعناها

الوحدة في اللغة: الوحدة الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة، ثم يطلق على كل موجود.. فالواحد لفظ مشترك يطلق على ستة أوجه، ما كان واحداً في الجنس مثل: الإنسان والفرس، أو النوع مثل: محمد وعلي، أو ما كان واحداً بالاتصال في الشخص أو الصفة، أو ما كان واحداً لعدم النظر مثل الشمس، أو ما كان واحداً لعدم التجزئة فيه مثل الذرة، أو ما كان واحداً في مبدأ العدد مثل واحد، أو في مبدأ الخط كالنقطة، والوحدة في الكل عارضة^(١).

أما الوحدة فقد فسرت في المعاجم بالانفراد، وتستعمل الآن في معنى الاتحاد أو صيرورة الاثنين فما فوقهما واحداً فيقال: وحدة الدولتين، ووحدة قوانين التجارة، والوحدة كون الشيء بحيث لا ينقسم، وتطلق ويراد بها عدم التجزئة والانقسام^(٢).

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، ضبط محمد خليل، طباعة دار المعرفة، بيروت، ص ٤٣٥.

(٢) من مقال للشيخ محمد النجار في مجلة الأزهر، عدد رمضان سنة ١٣٧٧هـ.

حينما درس النقاد المسرحية والقصة وهما من الفنون الأدبية المستحدثة في اللغة العربية، تبين لهم أن الوحدة الموضوعية من أهم الشروط التي يجب توافرها في العمل الأدبي، ونحن حينما نتكلم على الوحدة الموضوعية في سورة معينة، فإننا لا نريد أبداً أن نقارن بين القرآن من جهة والفنون الأدبية من جهة أخرى، إنما نريد أن نوضح تلك الوحدة الموضوعية، ونبين التماسك العضوي، ونؤكد الترابط الفني الدقيق.

والمراد بالوحدة الموضوعية أن يكون العمل الفني متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك، بحيث إن كل جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف جزئية واحدة، لأن العمل الفني يستغني عنها، أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها، وينبغي أن نقرر ابتداءً أن القرآن الكريم يجمع أحسن ما يكون الجمع بين الناحيتين الفنية والدينية ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى، فتكتمل بذلك وحدة الأحداث الموضوعية في القرآن الكريم^(١).

إن القرآن الكريم يصور وحدة الأحداث الموضوعية في تسلسل فريد تجعل المتتبع للسرد القرآني خاصة في السورة التي تتحدث عن موضوع واحد، يحس بالسبك المتكامل في وحدة الموضوع من خلال السور القرآنية.

ويقول العلامة الشاطبي في موافقاته عن الوحدة الموضوعية: «إن السورة الواحدة مهما تعددت قضاياها تكون قضية واحدة، أي تهدف إلى غرض واحد أو تسعى لإتمامه، وإن اشتملت على العديد من المعاني كسورة المؤمنين»^(٢).

وهناك منهج آخر في الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم وهو المنهج

(١) بتصرف من الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، عليه السلام، للدكتور حسن محمد باجودة، طباعة دار الكتب الحديثة، القاهرة، دون تاريخ، ص ٢٥.

(٢) كتاب موافقات للإمام الشاطبي، مجلد ٣، ص ٢٤٩.

الذي يقوم على جمع بعض الآيات المتفرقة في موضوع واحد وترتيبها حسب النزول مع الوقف على أسباب النزول ودراستها دراسة منهجية موضوعية كاملة لتعطينا موضوعاً واحداً له وحدة موضوعية متكاملة متناسقة لا تباين فيها ولا اختلاف، ومن الظواهر القرآنية الملفتة للنظر والتي تأسر القلب ظاهرة تكرار الموضوع الواحد في سور مختلفة وبأساليب متباينة^(١).

فالقرآن الكريم وصف الإنسان بأوصاف متعددة في أماكن متعددة في السورة المكية تارة، وفي السور المدنية تارة أخرى، نجد في السور المكية أن الله تعالى يقول: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفُؤٌ ۖ ﴿١﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَقْبَىٰ ﴿٢﴾﴾ [العلق: ١-٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۖ ﴿١﴾﴾ [العاديات: ١٠٠/١٦٧-١٦٨]، وفي سورة الكهف: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا ۖ﴾ [الكهف: ١٨/٥٤].

في السور المدنية يقول تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨/٤]. فهذه الأوصاف تكشف الإنسان وتظهره على حقيقته في تناسق تام وفي موضوع واحد رغم اختلاف الآيات والسور.

وكذلك نجد وحدة الموضوع في آيات كثيرة مثل الآيات التي تتحدث عن الخمر والقتال، تكسب وحدة الموضوع في القرآن الكريم أهمية قصوى، إن كل تلك القضايا التي تناولها القرآن عبر آياته إذا جمعت تكون موضوعاً واحداً متكاملاً وهو ما نسميه بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ذلك أن القرآن الكريم يطرق الموضوع الواحد بعدة أساليب وفي أماكن كثيرة مع ترابط الآيات والسور في موضوع واحد، فيمكننا أن نعرف الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم باختصار بأنها «هي وحدة الموضوع في القرآن

(١) كتاب الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمود محمد حجازي، طباعة دار الكتب

الكريم مشتملاً على منهجية البحث في جمع الآيات التي تتعلق بموضوع واحد وترتيبها حسب النزول مع بحثها في سورتها لبيان العلاقة بما قبلها وبما بعدها، وبحث تسلسل الموضوع في السورة الواحدة للوصول للغاية المنشودة والتي هي الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم من خلال سوره وآياته^(١).

معنى الوحدة الموضوعية

أما بالنسبة إلى معنى الوحدة فهي كون الشيء بحيث لا ينقسم، وتطلق ويراد بها عدم التجزئة والانقسام، والموضوعية في استعمال اللغة: وضع موضعاً وموضوعاً، والوضع يطلق على الخط مثل: وضعت رحلي: «حططته»، ووضعت المرأة ولدها: «ألقته» واستعمل مجازاً في القرآن الكريم على عدة معان.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَارِ﴾ [الرحمن: ١٠/٥٥] بمعنى خلقها وأوجدتها.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦/٣] بمعنى بني وخصص للعبادة.

﴿وَلَا وَضَعُوا لِخَلْقِكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلْفَنَّةً﴾ [التوبة: ٤٧/٩] بمعنى حملوكم على السير بسرعة لها.

والموضوع في الكتب المؤلفة «موضوع العلم» ما بحث فيه عن عوارضه الذاتية كجسم الإنسان بالنسبة إلى علم الطب، واللفظ العربي بالنسبة إلى النحو، والموضوعية مصدر صناعي نسبة إلى الموضوع المأخوذ من الموضوع^(٢).

(١) انظر المرجع السابق، ص ٣١.

(٢) بتصرف من الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمد حجازي، ص ٣٣ وما بعدها.

أما الوحدة الموضوعية كمركب وصفي فمعناها^(١):

اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثراً وأنه لا تباين فيه ولا اختلاف، بل يؤلف وحدة موضوعية له كاملة كما نقول بعبارة أخرى: «وحدة الموضوع».

وأما الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم فالمراد منها^(٢):

البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة، ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي نبهته لتحقيق الهدف، وهو الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

والمثال على ذلك التشريع في تحريم الخمر، فإننا نجد أن القرآن الكريم تعرض لها في أربع سور، وفي كل سورة كان له معنى وغرض، فإذا جمعنا هذه القضايا وربناها لخلصنا من ذلك كله إلى أن موضوع تحريم الخمر الذي ذكر في أربع سور يكون وحدة موضوعية تامة كاملة هي تحريم الخمر تحريماً كاملاً، وإنما سلك القرآن فيها مسلك التدرج والتربية الحكيمة.

ولو أخذنا مثلاً آخر كمسألة القتال أو الربا أو العقيدة نجد أن القرآن تكلم عنها كثيراً وتعرض لها في شتى صورها المختلفة ولفت النظر إلى الكون كله وما فيه، وبعد البحث والدقة في الفهم نخلص إلى حقيقة واحدة هي: أن كل هذه القضايا التي ذكرت تكون وحدة موضوعية كاملة.

والوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ترتكز على^(٣) تكرار الموضوع الواحد في القرآن الكريم، وذكر الموضوع غير تام في سورة واحدة، وكمال الوحدة الموضوعية وتناسقه في جميع السور التي تكرر فيها الموضوع، وعدم

(١) بتصرف من الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمد حجازي، ص ٣٣ وما بعدها.

(٢) بتصرف من الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمد حجازي، ص ٣٣ وما بعدها.

(٣) راجع الوحدة الموضوعية للدكتور حجازي. ص ٣٥.

كمال الوحدة الموضوعية بالنسبة إلى كل سورة ذكر فيها الموضوع على حدة، فهذه هي المراكز الهامة التي تركز عليها الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

المبحث الثاني

أمثلة للوحدة الموضوعية في القرآن الكريم

ونريد بالأمثلة هنا على تعددها واختلافها نوعين من الأمثلة. النوع الأول: الآيات المتفرقة التي تتحدث في موضوع واحد، والنوع الثاني: السورة أو السور القرآنية التي تتحدث في موضوع واحد.

المثال الأول: جمع الآيات المتفرقة والتي تتحدث في موضوع واحد، إذا أراد الباحث أن يطرق مثل هذا الموضوع من موضوعات القرآن الكريم، لا بد أن يكون تصوراً لأبعاد الموضوع، وأن يتدرج في جمع المادة العلمية متبعاً الخطوات التالية^(١):

(أ) أن يختار عنواناً للموضوع القرآني الذي يريد البحث في آياته بعد تحديد معالم حدوده ومعرفة أبعاده.

(ب) أن يجمع بقدر الإمكان كل الآيات التي تتعلق بالموضوع، أو تشير إلى جانب من جوانبه.

(ج) أن يرتب الآيات حسب النزول مكية كانت أو مدنية.

(د) دراسة تفسير الآيات بالرجوع إلى كتب التفسير التحليلي، ولا بد من التعرف إلى دلالات الألفاظ واستعمالاتها والروابط بين الألفاظ في الجملة، وبين الجمل في الآية، وبين الآيات التي تتحدث على الموضوع.

(١) راجع مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم، ص ٣٧ وما بعدها.

(هـ) بعد الإحاطة بمعاني الآيات مجتمعة يحاول الباحث أن يستنبط العناصر الأساسية للموضوع من خلال التوجيهات القرآنية إن أحاط بها. وللباحث أن يقدم أو يؤخر العناصر حسب أهميتها في موضوع الآيات.

(و) ثم يلجأ الباحث بعد ذلك إلى التفسير الإجمالي في عرض الأفكار لبحثه مستشهداً بالأحاديث النبوية، وفهم الصحابة، رضوان الله عليهم، لنصوص آيات القرآن الكريم.

(ز) كما لا بد للباحث من الالتزام بمنهج البحث العلمي، فإن كان الموضوع متشعب المباحث والمجالات، فلا بد من وضع تمهيد يبين الباحث فيه منهجه في تناول الموضوع، ثم يقسم الموضوع إلى أبواب وفصول ومباحث، ويجعل للباب عنواناً وللфصل كذلك، وللمبحث عنواناً خاصاً به، أما إذا كان الموضوع محدد المعالم، واضح المجالات، قليل العناصر، فيمكن أن يجعل الباحث بحثه في شكل مقالة علمية تتكون من المقدمة والموضوع والخاتمة متناولاً القضية بأسلوب علمي رصين.

(ح) وليكن هدف الباحث إبراز حقائق القرآن الكريم مع ذكره حكمة التشريع وجماله ووفائه بحاجات البشر وملاءمته للفطرة السليمة وإطلاقه للطاقات الإيجابية في الإنسان.

ونأخذ مثلاً على ذلك: صفات الأنبياء عليهم السلام: إذا تتبعنا القرآن الكريم واستعرضنا آياته التي تتحدث عن الأنبياء الكرام نجد فيها الذكر العطر والثناء الحسن على هؤلاء الصفوة المختارة من عباد الله الصالحين الذين أكرمهم الله بالنبوة ليكونوا حملة الهداية والإصلاح وقادة ركب الإنسانية إلى السعادة، ومن صفاتهم في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٧٣].

وصفات الأنبياء والرسل تتلخص في الآتي^(١):

(١) الصدق: وهذه الصفة ملازمة للنبوة، وهي وإن كانت ضرورية للبشر، إلا أنها بالنسبة إلى دعوة الأنبياء صفة لازمة، ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى في حق النبي الكريم ﷺ: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٨].

(٢) الأمانة: وهو أن يكون النبي أميناً على الوحي يؤديه دون زيادة أو نقصان بلا تحريف ولا تبديل، فالأنبياء مؤتمنون على الوحي، قال تعالى في وصف النبي: ﴿وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨/٧] وقال عن نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٣﴾﴾ [النجم: ٣-٤].

(٣) التبليغ: وهذه صفة ملازمة للرسالة قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧/٥]، فكل رسول مكلف بالتبليغ وكل نبي قد بلغ قومه، ومنهم نوح وصالح وهود وشعيب وغيرهم من أهلك الله أقوامهم لعدم استجابتهم للدعوة، وكل من هؤلاء يقول لقومه: ﴿لَقَدْ أَهْلَقْتُمُكُمْ رَسُولَتِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٩٣/٧].

(٤) الفطنة: وهي الذكاء والنباهة، فلم يبعث أحد من الأنبياء إلا وكان على جانب عظيم من النباهة والذكاء مع كمال العقل والرشد ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤/٦].

(١) انظر هذه الصفات كاملة في كتاب دراسات في التفسير الموضوعي، الألمي، ص ٢٢٣ وما بعدها.

وإذا كان البشر يعترهم الضعف والشيخوخة ويصل بعضهم إلى حالة (الخرف) فإن الأنبياء يظلون على رجاحة العقل وقوة التفكير مهما امتدت أعمارهم بعناية الله وحفظه لهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(٥) السلامة من العيوب المنفرة: خَلْقِيَّةُ أو خُلُقِيَّةُ تنفر الناس منهم، والأمراض المنفرة كالبرص والجذام لا يمكن أن تصيب أحد الأنبياء عليهم السلام، وما روي عما أصاب نبي الله أيوب، عليه السلام، فهو من الإسرائيليات الكاذبة التي لا يعتمد عليها، وقد ذكر لنا القرآن أن هناك ضراً أصابه فدعا ربه فكشف الله عنه هذا الضر قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤]. ونسب ما أصابه من ضر إلى الشيطان لأن الشيطان كان يوسوس إليه ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (٤١) [ص: ٤١/٣٨]، وظاهر الآيات أن الضر الذي أصابه كان في جسمه وأهله، وهذا النوع من الضر يلحق بالبشر ويلحق بالأنبياء، فإن المرض يعترهم كالموت، وليس في ذلك ما ينقص من قدرهم أو مكانتهم.

(٦) العصمة: سميت العصمة عصمة، لأنها تمنع من ارتكاب المعصية، وأما في الشرع: فهي حفظ الله لأنبيائه ورسله من الوقوع في الذنوب والمعاصي وارتكاب المنكرات والمحرمات، فهم معصومون من الصغائر والكبائر، بعد النبوة باتفاق، وأما قبل النبوة فيحتمل أن تقع منهم بعض المخالفات اليسيرة التي لا تخل بالمرءة ولا تقدح بالكرامة والشرف^(١).

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٠٨/١.

فهذا نموذج للتفسير الموضوعي لبعض الآيات التي تتعلق بموضوع واحد هو صفات الأنبياء كما جاءت في القرآن الكريم.

والمثال الثاني: التفسير الموضوعي لسورة من القرآن الكريم تشتمل على وحدة موضوعية:

قبل البدء في تفسير السورة لا بد من دراسة أولية للسورة تحت عنوان «بين يدي السورة» تناول فضل السورة ومميزاتها وسبب تسميتها إن وجد، وسبب النزول لأنها تعين على التعرف على موضوع السورة، ثم التعرف على الهدف الأساسي للسورة، وذلك من خلال استعراض الأحداث والقضايا الأساسية التي تناولتها السورة والرابط الذي يربط تلك القضايا بعضها مع بعض، وكذلك يمكن التعرف على هدف السورة من خلال الفترة الزمنية التي نزلت فيها السورة، ومن ذلك نجد أن السور المكية تناولت قضايا الإيمان بالله وحده، والإيمان بالبعث بعد الموت، والإيمان بالرسالات السماوية، والدعوة إلى أمهات الأخلاق، وأما السور المدنية فقد كان طابعها بناء المجتمع الإسلامي على أسس من الإيمان والطاعة والتشريعات التفصيلية في شؤون الحياة، وحماية المجتمع الإسلامي من الأخطار الداخلية والخارجية بكشف خطط المتآمرين، وهتك أستار المنافقين وأوليائهم من اليهود الماكرين.

هنالك سور كثيرة في القرآن الكريم تشكل وحدة موضوعية كسورة البقرة وسورة آل عمران وسورة النساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة ويوسف والكهف والنور، ولكننا سنتعرض بالمثال لا الحصر لثلاث سور هي: الأنعام، ويوسف، والكهف.

المثال الأول: الوحدة الموضوعية في سورة الأنعام^(١)

إن الموضوع الذي تحدثت عنه السورة هو العقيدة الإسلامية من جميع جوانبها بدءاً بالآيات التي تناولت الوجدانية بكل معانيها، فقد تطرقت الآيات في سورة الأنعام لتوحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، وتوحيد الولاية التشريعية، بمعنى أنه ينبغي أن نعتقد أن الله وحده هو المشرع، وتوحيد الحاكمية بمعنى أن الله سبحانه وتعالى له الحكم في كل شيء، كما تناولت سورة الأنعام في وحدتها الموضوعية وصايا الدين الإسلامي الجامعة، والأسس التشريعية، وكذلك تناولت جانباً هاماً في العقيدة الإسلامية جانب الأصول الإيمانية، وبذلك تكون سورة الأنعام وحدة موضوعية تتناول العقيدة الإسلامية متمثلة في الآيات التي تحدثت عن قضية الألوهية وقضية الوحي والرسالة وقضية البعث والجزاء.

المثال الثاني: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام^(٢)

تناولت سورة يوسف، عليه السلام، وحدة الأحداث الموضوعية بشقيها القصصي والتعقيبي، والتي تهدف إضافة لإرساء أسس العقيدة، إلى تسلية المصطفى ﷺ وهو ما يزال في مكة المكرمة، ويتبين الباحث أدوات الشخصيات المختلفة في سبيل تحقيق الوحدة الموضوعية، فالشخصية الرئيسية التي تدور حولها الأحداث في سورة يوسف هو يوسف، عليه السلام، كما يجد الباحث من خلال الوحدة الموضوعية لهذه السورة الكريمة دراسة للمجتمعات المكية والشامية والمصرية، وكذلك الدروس المستفادة من سورة يوسف عليه السلام.

(١) راجع الوحدة الموضوعية في سورة الأنعام رسالة دكتوراه، للدكتور عباس عوض الله عباس، جامعة أم درمان الإسلامية.

(٢) رسالة للدكتور حسن محمد باجودة، طباعة دار الكتب حديثة، مصر.

لذلك فإن قصة يوسف، عليه السلام، ينبغي أن تتلى كلها متوالية الحلقات والمشاهد من البداية حتى النهاية، فالسورة ذات طابع خاص منفرد في احتوائها على قصة يوسف، عليه السلام، كاملة. وقصة يوسف، عليه السلام، وحدة موضوعية متماسكة، وهي أطول قصة في القرآن الكريم تجمع حلقاتها كلها في سورة واحدة، حيث إننا نجد أن قصة موسى، عليه السلام، مثلاً موزعة على سور القرآن الكريم من سورة البقرة إلى سورة النازعات تارة بإسهاب شديد أو إيجاز بديع تارة أخرى، لذلك فإننا نجد في سورة يوسف الخصائص الفنية البحتة للقصة من خصائص الموضوع وخصائص العرض والأداء، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾ [يوسف: ١٢/٣].

يقول الإمام القرطبي: «ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة بالفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر والإعجاز لمن تأمل» اهـ^(١).

ونجد أن كل العظات المبتوثة في حنايا السورة تتناسب مع القصة، والقصة تتكامل معها لتحقيق القضية الكبرى التي جاء بها هذا القرآن للبشرية كما جاءت بها رسالات الأنبياء في العصور اللاحقة.

المثال الثالث: الوحدة الموضوعية في سورة الكهف^(٢)

إن القصص هو العنصر الغالب في هذه السورة ففي أولها تحيي قصة

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١٨/٩.

(٢) انظر دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور الألمي، ص ١٤٥ وما بعدها.

أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس، وفي وسطها تحيء قصة موسى مع العبد الصالح، وفي نهايتها قصة ذي القرنين، ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، وما تبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على تلك القصص إلى جانب ذكر مشاهد الحياة ومشاهد القيامة.

أما المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها ويدور حوله سياقها فهو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة بدءاً من قوله تعالى: ﴿وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ١٨/٤]، وختاماً بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَحْدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٨/١١٠]، وهكذا يتساوى البدء والختام في إعلان الوحداية وإنكار الشرك. وبهذا يتجلى للناظر في السورة أنها منتظمة النسق، مطردة السياق، واضحة الغرض، قوية الأسلوب في أولها وآخرها وفي أثنائها في معنى واحد تلتقي عنده وحدة الموضوع في السورة الكريمة من أمثال وقصص ووعد ووعيد وتذكير وبيان.

لقد تناولت السورة قضية توحيد الله سبحانه وتعالى، فلا يخلو مقطع من المقاطع من توجيه العبادة لله سبحانه وتعالى والإخلاص له في القول والعمل وترك عبادة الطواغيت والشركاء، وكذلك الدعوة للإيمان باليوم الآخر من أبرز القضايا التي تناولتها السورة، وكذلك استهدفت السورة أمهات الأخلاق بضرب الأمثال للقيم الحقيقية، والقيم الزائفة الخادعة التي تموه الباطل وتظهره على غير حقيقته بتركها والبعد عنها مما يجعل عناصر الوحدة الموضوعية في سورة الكهف واضحة المعالم.

ولقد امتاز القرآن الكريم من جملة ما امتاز به، بأنه حين يعرض لموضوعاته، يعرض لها بطريقة لم يسبق إليها، فلا يستطيع أن يسلكها

سالك، أو أن ينتهجها ناهج، فهو في عرضه يتخذ له أسلوباً يختص به، أعجز الإنس والجن عن معارضته، فتراه حين يعرض، يأتي بوجوه متعددة وأساليب متنوعة وأفانين متجددة، يراعي المقام في كل موقف من مواقفه، ويطابق جميع مقتضيات الحال في كل عبارة من عباراته، فله في كل مقام مقال، وفي كل موضوع مجال، له طرق في الأداء لا عهد للبشر بها في أبلغ كلام، ولا مثيل لها في أفصح بيان، غاية في البلاغة، ليست لها نهاية، ونهاية في الفصاحة، لا يجاوز الفصحاء مبتدأها، ثم هو فيما يعرضه من موضوعات شتى لا يهمل جانب النظر ولا يغض من شأنه، بل يحث عليه، ويدعو إليه، وتتحاكم إليه العقول في كشف الحق، وبيان الصدق، يشفع حكمه ببيان حكمته، وتوجيه شرعته، ثم يدع للسامع الحرية وحسن الاختيار، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وإن تعجب فعجب عرضه للموضوع الواحد، ذي المعنى المتحد، والهدف المشترك، فإنك تجده مع تفرقه في القرآن في أماكن عدة، ومع تباعد أوقات نزوله، وتباين أزمان وصوله، ليست بين آياته مفارقة ولا تشويه ولا تناقض، بل هي وحدة واحدة، مترابطة، متناسقة، تكون لنا صورة واحدة في أحسن تقويم، وتعطينا منظراً متألّفاً في أبدع تنظيم، وتصور لنا كائناً متناسق الأعضاء، مترابط الأجزاء، متكامل البناء، جيد السبك، قوي المعنى، متين النظر، لا تناكر بين معانيه في العقول والأفهام، ولا تباين بين مبانيه في الأسماع والأذان، بل يكمل بعضه بعضاً، ويأخذ بعضها بحجز بعض، كل جزء يستدعي الآخر، وكل لفظ يقع مع الثاني في موقعه، وخلاصة القول: إن القرآن العظيم في عرضه لموضوعات سورة وآياته فريد في هذا الباب، ونجد أن الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم تجعل القارئ يستكشف هداية القرآن ومواضعه وما جاء به لأداء مهمته ورسالته^(١).

(١) راجع دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني للدكتور أحمد جمال العمري، طباعة مكتبة=

وفي معرض حديثنا عن الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم لا بد أن نتحدث عن الوحدة الموضوعية في السور القصيرة كمثال ثابت لوحدة الموضوع فيها، ونأخذ مثلاً على ذلك سورة الإخلاص، التي كان موضوعها تقرير وحدانية الله سبحانه وتعالى، وسورة الكافرون التي كان موضوعها المفاصلة عن الكافرين، وسورتي الزلزلة والقارعة والتي تدور أحداثهما حول أحداث يوم القيامة والحساب فيه.

وهناك بعض السور القصيرة التي تتعدد أهدافها وأغراضها، ولكنها لا تخرج في الغالب عن هدفين أو ثلاثة، كسورة الطارق، التي تحدثت عن قدرة الله سبحانه وتعالى في الخلق، وعن تقرير الوحي المنزل على الرسول الكريم محمد ﷺ، وسورة الغاشية، التي تناولت أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، والاستدلال على قدرته بالمخلوقات، وسورة القلم، التي كان موضوعها الأساسي الدفاع عن شخصية رسول الله ﷺ وتحذير الكافرين من القول عليه، وإلصاق التهم الباطلة به.

ومن هنا نقول، ومن خلال دراستنا للوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم: إننا لسنا في حاجة إلى التفسير الموضوعي في أي زمان مثل حاجتنا إليه في هذا الزمان، الذي يطالب فيه المسلمون أن نخرج لهم البحوث العلمية الصحيحة التي تنظم علاقتهم بربهم، وبمجتمعهم الكبير وأسره وأولادهم ومتطلبات أنفسهم، لأنه إذا كانت المباحث القرآنية متجلية للمباحث بجميع نواحيها، متجهة به إلى غايتها، مبرزة لنواحي الحكمة في دعوة القرآن إليها، كان ذلك النهج باعثاً للمطلع عليه إلى أن يسلك الطريق الذي رسمه القرآن، حيث كان واضح الغاية، محدد النهاية، بارزاً في

=الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ١٠، ٤٤، وكذلك راجع التفسير الموضوعي للدكتور أحمد السيد الكومي، طباعة دار الهدى، مصر سنة ١٩٨٠م، ص ١٣ وما بعدها.

تصويره، باعثاً لإشباع رغبة الإنسان من موضوع إلى موضوع آخر، فالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم هو الطريق الأمثل الذي يؤدي بالناس إلى أن يفهموا القرآن، فيتبينوا اتصالهم بواقع حياتهم، حيث يرشدتهم إلى الصالح منها، ويحجبهم ما يكون حذراً لهم، وعائفاً عن طريق إسعادهم، وهذه هي أمثل الطرق في إبراز موضوعات القرآن الكريم.

المحاضرة الرابعة

منهج إبراهيم، عليه السلام، في الدعوة كما عرضه القرآن الكريم

تمهيد: نشأة إبراهيم عليه السلام

نسبه: هو إبراهيم خليل الله بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عامر بن شالح بن أرفكشان بن سام بن نوح عليه السلام.

هذا هو النسب في التوراة وبعض كتب التاريخ، وقد جاء في القرآن أن اسم أبيه «آزر» واختلف المفسرون في اسم أبيه ف قيل: إن «آزر» صفة، وقيل: اسم إله من آلهتهم، وقد كانت الأمم السالفة يقلد بعضهم بعضاً في أسماء الآلهة^(١).

نشأته: نشأ إبراهيم، عليه السلام، قبل الميلاد بنحو ألف وست مئة عام، أي: قبل أربعة آلاف عام، وقد حدد المسعودي الفترة الممتدة بين عهد إبراهيم عليه السلام وبين عهد موسى عليه السلام بخمس مئة وسبع وستين سنة^(٢).

وقد عین زمن إبراهيم، عليه السلام، في القرن التاسع عشر قبل الميلاد،

(١) انظر قصص الأنبياء، الشيخ عبد الوهاب النجار، ص ٩٣.

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودي، طباعة مصر ١٩٣٨م، ص ٧١.

ويتفق المؤرخون على أن مولد إبراهيم الخليل كان في العراق وإن اختلفوا في تحديد المدينة التي ولد فيها، وأنه قد عاش في عهد الملك نمrod الذي حاج إبراهيم في ربه^(١).

وقد ظهر إبراهيم، عليه السلام، على مفترق من الطرق يختلف فيه الناس في العبادة والاعتقاد، وكان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام والكواكب، فنشأ فيهم موحداً لله سبحانه وتعالى بفطرته السليمة.

المبحث الأول

صفات إبراهيم، عليه السلام، وأثرها في الدعوة

إن من أهم الصفات التي اتصف بها إبراهيم، عليه السلام، أنه كان أمة، قانتاً، حنيفاً، شاكراً لنعم ربه، أوهاً، حليماً. وسنتناول هذه الصفات كما جاءت في القرآن الكريم:

يقول تعالى في سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤/٩].

ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ أي: إن إبراهيم، عليه السلام، كان كثير الدعاء حليماً عمن ظلمه وأناله مكروهاً، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه، فحلم عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر^(٢).

وقوله تعالى في سورة هود عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [٥٦] ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [٧٥] [هود: ٧٤-٧٥].

(١) تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري، ١/١٦٢.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤/٢٢٧.

ففي هذه الآية مدح لبعض الصفات الحميدة التي اتصف بها خليل الله إبراهيم، عليه السلام، من الحلم وهو العفو عند المقدرة والتأوه وهو الدعاء والإنابة والرجوع إلى الله تعالى بالاستغفار.

ويقول تعالى في سورة مريم: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ١٩/٤١].

إن إبراهيم بليغ التصديق بما يجب لله من الوجدانية والتزنية، ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل في تبليغ دعوة الحق إلى قومه^(١).

وفي سورة الذاريات يقول تعالى في وصف إبراهيم، عليه السلام، بالسخاء والكرم: ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثٌ ضَلَّ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [٢٤] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ [٢٥] فَرَأَى إِلَهُ أَهْلِهِ فَبَآءَ بِعِجْلٍ شَمِينٍ [٢٦] فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [٢٧] [الذاريات: ٢٤/٥١-٢٧].

في هذه الآية وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل، وفيه أيضاً وجوب ردّ التحية ﴿فَرَأَى إِلَهُ أَهْلِهِ﴾ يعني انسل خفية في سرعة ﴿فَبَآءَ بِعِجْلٍ شَمِينٍ﴾ من خيار ماله وشواه وقربه إليهم قائلاً: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ تُلطف في العبارة وعرض حسن، ففي هذه الآية إشارة إلى وصف إبراهيم بالسخاء والكرم وآداب الضيافة^(٢).

وجاء في سورة النساء وصف إبراهيم، عليه السلام، بالخليل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥/٤].

(١) باختصار من تفسير محاسن التأويل للقاسمي، ١٢٨/١١.

(٢) باختصار من تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤٢٠/٧.

فضل الله دين الإسلام على سائر الأديان ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ معناه أخلص دينه لله وخضع له وتوجه إليه بالعبادة ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: موحد والملة: الدين والحنيف: المسلم، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ومعنى الخليل الذي ليس في محبته خلل وهو خليل الله، لأنه أحبه واصطفاه، والخليل هو الذي يوالي في الله ويعادي في الله، والإخلاء بين الأدميين الأصدقاء^(١).

ومن جملة ما اتصف به إبراهيم، عليه السلام، الفرق مع أبيه، بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَتَّبِعُ مَا لَا يَشْعُرُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يَغْنَى عَنْكَ شَيْئًا ۚ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝٤٢ يَتَّبِعْ لَا تَتَّبِعْ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۝٤٣ يَتَّبِعْ إِنِّي خَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝٤٤﴾ [مريم: ١٩/٤٢-٤٥].

وقوله تعالى في ذات السورة مريم: ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝٤٧﴾ [مريم: ٤٧/١٩].

لقد طلب إبراهيم، عليه السلام، من أبيه بأدب وحسن خلق ألا يعبد الأصنام الصماء التي لا تسمع والتي لا تبصر والتي لا تضر ولا تنفع والتي لا تغني الإنسان عن الله سبحانه وتعالى خالقه شيئاً، وطلب من أبيه أن يتبعه حتى يهديه إلى الصراط المعتدل، لقد أرشد أباه إلى الحق بالرفق واللطف، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، وطلب من أبيه أن يتبعه حتى ينجيه من الضلال، ثم نهى أباه عن عبادة الشيطان العاصي لله ربه ولا ريب أن المطيع للعاصي عاص، وذكر الرحمن لإظهار كمال شناعة معصية الشيطان لله، ووجه أباه وخوفه من سوء العاقبة، وبما

(١) باختصار من الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٤٠٠/٥ وما بعدها.

يجره له الشيطان وبالأ، ولم يخل ذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العذاب لاحق بأبيه ولكنه قال: ﴿أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ فذكر الخوف والمس وذكر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياءه وأوليائه أكبر من العذاب وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: ﴿يَكْتَابُ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ يقابل السيئة بالحسنة فلن أجيبك بمكروه ولكن ساعدو ربّي أن يغفر لك^(١).

ومن صفات إبراهيم، عليه السلام، الصبر وتحمل الأذى في سبيل دعوته ودينه، قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨/٢١].

قالوا: حرقوه، لأنه استحق أشد العذاب عندهم، والنار أهول ما يعاقب به، وانصروا آلهتكم بالانتقام لها ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ به شيئاً فلا يليق به إلا الإحراق.

ومن أبرز صفات إبراهيم، عليه السلام، توكله التام على الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨/٢٦-٨٠].

يعني لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ هو الخالق الذي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدر، وهو الذي يهدي من يشاء ويقبل من يشاء ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن، وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذاباً زللاً ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ أسند المرض إلى نفسه، وإن كان من قدر الله وقضائه وخلقه، ولكنه أضافه

(١) باختصار من تفسير محاسن التأويل للقمي، ١٣٢/١١.

إلى نفسه أدباً، فإذا وقعت في مرض لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه، وفي هذا تمام التوكل على الله^(١).

ومن صفات إبراهيم، عليه السلام، الشجاعة قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَتَأْتِيهِ لَكَيْدٌ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٥٧].

لأحتالن لفضيحة الأصنام بإظهار عجزها في عدم قدرتها في الدفاع عن نفسها بعد أن تفرغوا من عبادتها وتذهبوا بعيداً عنها وتكون بمفردها، وفي القسم إشارة إلى شجاعته.

لقد كسر إبراهيم، عليه السلام، الأصنام بكل جرأة وحطمها معرضاً نفسه للهلكة في سبيل الحق، لقد حطمها، إذ ذهب إلى أصنامهم التي يعبدون واستهزأ بها عندما خاطبها مستنكراً لها ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ من هذا الطعام الذي وضع أمامكم للتبرك، لكن الأصنام لا تنطق ولا تجيب مما جعل إبراهيم، عليه السلام، يستعلي عليهم ويضربهم بيمينه بكل قوة بالفأس التي يحملها، فيضربها بكل قوته، إن إبراهيم قد صبَّ غيظه على هذه الأصنام فهشمها تهشيماً، فتحركوا وغضبوا لأن آلهتهم قد حُطمت وكُسرت، وأصابع الاتهام كلها تشير إلى ذلك الفتى إبراهيم، لأنه عدوها وعدوهم فأمروا به أن يقبض عليه ويقدم إلى محاكمة علنية، لأنه تحدى عقيدتهم الفاسدة، وجمعوا كل الناس، الرجال، والنساء، والشيوخ، والأطفال، وفي ذات المكان الذي شهد تحطيم آلهتهم حوكم إبراهيم، الذي وقف وحده أمامهم وأمام جموعهم وسلطانهم الخاسر، فكان لا يبالي لأن الله الواحد الأحد الفرد الصمد معه، كان متوكلاً على ربه الذي يحيي ويميت ربه الشافي، الغافر للذنوب لمن تاب إليه، الطاعم الساقى الرازق

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١٤٦/٦.

مالك يوم الدين الذي يدخل برحمته وفضله يوم القيامة الصالحين من عباده إلى جنة النعيم^(١).

وفي تلك المحاكمة الكبرى كانت إفادات إبراهيم، عليه السلام، عندما سُئِلَ ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا؟﴾ أشار إبراهيم إلى الصنم الأكبر الذي علق الفأس في عنقه استهزاء مبيناً لهم أن هذا الكبير هو الفاعل.

لقد علمنا أبو الأنبياء إبراهيم، عليه السلام، أن إزالة الباطل تتطلب أحياناً ثورة عملية ينتقل بها الداعية المؤمن من مرحلة القول إلى مرحلة العمل والتنفيذ، فأبانت الآيات القرآنية التي تناولت موضوع دعوة إبراهيم، عليه السلام، إنها اشتملت على جانبين هامين هما: الأسلوب القولي والأسلوب العملي، وهذا ما سنتناوله في المبحث التالي.

المبحث الثاني

أساليب إبراهيم الدعوية كما عرضها القرآن الكريم

أولاً: الأساليب النظرية

(١) المناظرة والمحاجة

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٨].

هل رأيت يا محمد أعجب من حال هذا الذي جادل إبراهيم، عليه

(١) انظر حياة إبراهيم للأستاذ محمود شلبي، طباعة دار الجليل بيروت، ١٩٧٤م، ص ٨٠ وما

السلام، في توحيد الله تعالى وربوبيته، لأن الله أعطاه الملك فتجبر، وسأل إبراهيم: من ربك؟ فقال إبراهيم، عليه السلام: ربي الذي يحيي الخلائق فتحيا، ويسلبها الحياة فتموت، فهو المنفرد بالإحياء والإماتة. قال: أنا أحيي وأميت، أي: أقتل من أردت قتله وأستبقي من أردت استبقاءه، فقال إبراهيم: إن الله الذي أعبدته يأتي بالشمس من المشرق، فهل تستطيع تغيير هذه السنة الإلهية بأن تجعلها تأتي من المغرب؟ فتحير هذا الكافر وانقطعت حجته، شأنه شأن الظالمين لا يهديهم الله إلى الحق والصواب^(١).

ويقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَنَا رَاكِبٌ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ﴾ (٧٤) وَكَذَلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّ أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ ٱلْأَفْلَهِ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّ أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّ أَفَلَ قَالَ يَنْفَوِرُ إِلَيَّ بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهٖ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحٰجُّونِي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ؕ إِلَّا أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْنَا سُلْطٰنًا فَأَنتَ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ [الأنعام: ٧٤-٨٣].

(١) انظر التفسير المبسر، مجمع الملك فهد، ص ٤٣.

تصور الآيات السابقة مشهد الفطرة التي تنكر تصورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرها، إنها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم، إنه لم يهتد بوعيه وإدراكه إلى إلهه، ولكن فطرته السليمة تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهة، فالإله الحق في نظر إبراهيم لا يمكن أن يكون صنماً من حجر أو وثناً من خشب ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا مِثْلَهُ إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ كلمة يقولها إبراهيم لأبيه، وهو الأواه الحليم الرضي في الخلق، وهو القدوة في فهم الوحداية لله سبحانه وتعالى، لذلك فتح الله بصيرته للأسرار الكامنة في الكون ليريه الله ملكوت السماوات والأرض، وليكون من الموقنين المؤمنين إيماناً قاطعاً لا زعزعة فيه بالله الخالق القدير، فتأمل إبراهيم، عليه السلام، في الكواكب من نجوم وشمس وقمر استكبرها لتكون آلهته في بادئ الأمر، ولكنها حينما أظهرت ضعفاً بالزوال أنكر أن تكون له آلهة من دون الله، فقد غابت جميعها عن ناظره، فاتجه إلى فاطر السماوات والأرض وخالق تلك الكواكب وخالق كل شيء ليعبده سبحانه وتعالى دون غيره فلا إله إلا الله، فواجه قومه بقيته الحازم وإيمانه الراسخ بالله ربه ﴿وَحَاجُّهُمْ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ فقومه لا يتفكرون ولا يتدبرون في ملكوت السماوات والأرض كما تفكر وتدبر إبراهيم، عليه السلام، واجههم وهو مستنكر لما يعبدون من دون الله في ثقة وطمأنينة، أتجادلونني في الله وقد وجدته يأخذ بيدي ويفتح بصيرتي ويهديني إليه، فما أجادلكم في أمر أجده في نفسي ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾ فلا أخاف أحداً إلا الله، لأنه يعلم أن كل شيء يحدث إنما يحدث بمشيئة الله وعلمه، ولذلك فهو في حماية الله ورعايته ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فالمؤمن لا يخاف إلا الله ولكن المشرك يخشى ويخاف من كل شيء حوله، فكان من الأجدى أن يخافوا الله القوي الذي أشركوا به غيره، كما أن إبراهيم لم يكثر لخوف آلهتهم الزائفة التي لا تضر ولا تنفع ﴿فَأَنَّى آلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ المؤمنون الخائفون من الله الطائعون له أم الكافرون

المشركون الجاحدون لله ونعمه؟ إن الذين آمنوا هم الأحق بالأمن من غيرهم لأنهم لم يخلطوا شريكاً في عبادة أو طاعة أو اتجاه فعبدوا الله وحده فاستحقوا الأمن والهداية، وقد كانت هذه هي الحجة التي ألهمها الله إبراهيم ليدحض بها حجتهم التي جاؤوا بها يجادلونه، فلما واجههم إبراهيم بهذه الحجة التي آتاها الله له وألهمه إياها، سقطت حجتهم، وعلت حجته، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة، وهكذا يرفع الله من يشاء درجات متصرفاً في هذا بحكمته وعلمه ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

(ب) المعارض

قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا ابْنِ آدَمَ﴾^(٢) قَالَ بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا فَتَسْلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٣].

يقول الإمام القرطبي، رحمه الله، في تفسير هذه الآيات: «لما لم يكن السماع عاماً ولا ثبتت الشهادة استفهموه هل فعل أو لا؟ فقالوا: أنت فعلت هذا بالآلهة؟ فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ أي: إنه غار وعظم عليه أن يعبد هو ويعبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك، إن كانوا ينطقون فاسألوهم، فعلق فعل الكبير بنطق الآخرين تنبيهاً لهم على فساد اعتقادهم، كأنه قال: بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء ﴿فَتَسْلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ بين أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد، وكان قوله من المعارض، وفي المعارض مندوحة عن الكذب، أي: سلوهم إن نطقوا فإنهم يصدقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل، مع أن في الكلام اعترافاً بأنه هو الفاعل، وهذا هو

(١) باختصار من ظلال القرآن لسيد قطب، ١١٣٧/٢ وما بعدها.

الصحيح، لأنه عدده على نفسه فدل على أنه خرج مخرج التعريض، وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله^(١).

ويقول تعالى في سورة الصافات: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي التُّجُومِ ۝٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ [الصافات: ٨٧/٨٨-٨٩].

فنظر فيما نجم من الأشياء، فعلم أن لها خالقاً ومدبراً وأنه لا يتغير كتغيرها فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال الضحاك معناها: سأسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت وهذا تورية وتعريض، وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك: أشار لهم إلى مرض وسقم يعدي كالطاعون، وكانوا يهربون من الطاعون فارين منه خوفاً من العدوى^(٢).

(ج) الاستعطاف

جاءت بعض الآيات في سورة مريم توضح هذا الأسلوب الدعوي النظري في دعوة إبراهيم، عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۝٤٢﴾ يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾ يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾ يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝٤٥﴾ [مريم: ٤٢/٤٣-٤٥].

أرشد أباه إلى الدين المستقيم الذي فيه النجاة من عذاب الله تعالى إن مات على ما هو عليه من الكفر فيكون قريباً للشيطان في النار، وفي هذا استعطاف من إبراهيم، عليه السلام، لأبيه حتى يلين قلبه ويؤمن بالله، فدعاه من باب العطف عليه من أن يلحق به عذاب الله الأليم حباً لأبيه وعطفاً عليه.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٢٦٢/١١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٨٢/١٥.

(د) استعارة الخصم

جاء بيان هذا الأسلوب في قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨/٢١]. وقوله تعالى في السورة ذاتها: ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧/٢١].

لقد جعل إبراهيم آهتهم فتاتاً كسرها وقطعها، وهذا معنى الجذ، فصارت كالحطام والرفات، وهذا هو الكيد الذي أقسم به ليفعله بها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ ترك الصنم الأكبر وعلق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه، ليحتج به عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى إبراهيم ودينه ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إذا قامت الحجة عليهم ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ أي: النتن لكم والخزي والعار لما تعبدونه من دون الله من أصنام حجرية وأوثان خشبية، فتحسر على فعلهم هذا، وفي هذا استعارة وتحريك لمشاعرهم ليتيقنوا أنهم على الباطل يسرون^(١).

ثانياً: الأساليب العملية

(أ) القدوة

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَمَرْنَا إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَتَخَذَ لِنَفْسِهِ أَهْلًا مَرْضِيًّا﴾ [البقرة: ١٢٤/٢].

جعل الله لهم إبراهيم، عليه السلام، إماماً يتخذونه قدوة، ويقودهم إلى الله ويقدمهم إلى الخير ويكونون له تبعاً، وتكون له فيهم قيادة ﴿قَالَ وَمِنْ دُرِّيَّتٍ﴾ جاء الرد من الله الذي اصطفاه وابتلاه وجعله قدوة: إن الإمامة لا

(١) بتصرف من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١١/٢٦٥.

تكون بالوراثة إنما تكون لمن يستحقها بالعمل والصلاح والإيمان ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ والظلم أنواع وألوان، فمنه الشرك بالله والبغي على الناس، والإمامة والقدوة ممنوعة للظالمين، فالقدوة تكون في العقيدة الواحدة في الأمة المؤمنة^(١).

ويقول تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَفِيفًا وَكَثِيرًا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠/١٦].
وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَفِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣/١٦].

دعا الله سبحانه وتعالى مشركي العرب بوساطة أبيهم إبراهيم، عليه السلام، إلى ملته، فقد كان أمة جامعاً للخير وللخصال الحميدة قانتاً لله يعلم الناس الخير، مطيعاً لله قانتاً له بالدعاء، مفردة بالعبودية وحده دون غيره فقد قام الدليل العملي في عبادة الله سبحانه وتعالى، ثم إن الله تعالى أمر باتباع إبراهيم، عليه السلام، في مناسك الحج، وأمر باتباعه في التبرؤ من الأوثان، وفي الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول لأن النبي ﷺ أفضل الأنبياء وقد أمر بالاعتداء بهم واتباعهم^(٢).

قد كانت لكم قدوة حسنة في إبراهيم والذين اتبعوه من المؤمنين كلوط عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يعني الذين أشركوا بالله وعبدوا الطاغوت ﴿إِنَّا بُرَءُكُمْ﴾ جمع بريء، من دينكم ومعبودكم، أنكرنا ما أنتم عليه من الكفر بالله وجحدنا عبادتكم، إذ لا صلح بيننا ولا مودة إلى أن تؤمنوا بالله وحده، وقد كانت لنا أسوة حسنة في إبراهيم في أمور العبادة والتوحيد والتبرؤ من الكفار والمشركين والمنافقين^(٣).

(١) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب ١/١٥٧.

(٢) بتصرف من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١٠/١٧٥.

(٣) انظر محاسن التأويل للقاسمي، ١٦/١٢٦.

تلك المعاني العظيمة في الأسلوب العملي لإبراهيم، عليه السلام، جاءت في سورة الممتحنة قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤/٦٠].

(ب) البداءة بالأهم

قد كان من أساليب إبراهيم، عليه السلام، الدعوية ترتيب أمور الدعوة وتنظيمها بدءاً بالأهم فالأهم حتى يصل إلى الغاية المنشودة من دعوة الناس إلى دين الله، يقول تعالى في سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ﴿١٥﴾ [إبراهيم: ٣٥/١٤].

واذكر يا محمد حين دعا إبراهيم ربه بعد أن أسكن ابنه إسماعيل وأمه هاجر وادي مكة: رب اجعل «مكة» بلد آمن يأمن كل من فيها وأبعدني وأبنائي عن عبادة الأصنام.

ويقول تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١﴾ [العنكبوت: ١٦/٢٩].

واذكر يا محمد إبراهيم، عليه السلام، حين دعا قومه أن أخلصوا العبادة لله وحده، واتقوا سخطه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ذلكم خير لكم، إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم مما هو شر لكم، ونجد أن إبراهيم، عليه السلام، بدأ أولاً بالدعاء والتضرع إلى أن يكون وأبناؤه موحدين لله، يبدأ أولاً بنفسه ثم دعا قومه بعد ذلك لعبادة الله والخوف منه، فبدأ بالأهم.

(ج) البداءة بالأقربين

بدأ إبراهيم، عليه السلام، بأقرب الناس إليه مودة ورحماً وهو أبوه فدعا لتوحيد الله ونبذ عبادة الأوثان والأصنام واتبع معه أسلوباً عملياً في نهيه ألا يعبد الشيطان، واتخذ في سبيل ذلك كل ما أوتي من علم وحكمة، فبدأ بأبيه وهو أقرب الناس إليه، وهذا أسلوب هام في الدعوة إلى الله،

لينذر الإنسان عشيرته الأقربين قبل أن يدعو الناس أجمعين، وقد جاءت هذه المعاني واضحة في سورة مريم من الآية ٤٢ وحتى الآية ٤٥ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَتَّبِعُ مَا لَا يَشْعُرُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يَفْقَهُ عَنْكَ شَيْئًا ۖ إِنِّي خِفْتُ الْإِنْفِ أَنْ يَسْكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝٤٥﴾.

(د) اللين أولاً ثم الشدة

يقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَعِزَّنِي بِمَا أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ۖ إِنَّهُ يَهْدِي إِلَىٰ أَرْكَانٍ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٧٤﴾ [الأنعام: ٧٤/٦].

واذكر يا محمد الطريقة التي اتخذها إبراهيم، عليه السلام، في محاجة أبيه أزر، إذ قال له: أتجعل من الأصنام آلهة تعبدوها من دون الله تعالى، إني أراك وقومك في ضلال مبين وواضح عن طريق الحق، وهذا أسلوب اللين في الدعوة العملية، أما أسلوب الشدة التي أعقبت اللين في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٥٤﴾ [الأنبياء: ٥٢/٢١-٥٤].

فالشدة كانت واضحة في تحقيره لما يعبدون فقد وبخهم بقوله: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا ۖ﴾ فهي تماثيل وصور لا روح فيها مصنوعة لا تضر ولا تنفع، فكيف تعبد من دون الله؟ فكان ردهم دليلاً على ضعفهم في مواجهة الموعظة الشديدة لهم من إبراهيم، عليه السلام، عندما قالوا: إننا تأسينا بآبائنا في عبادة تلك التماثيل والصور، لذلك كان رد إبراهيم، عليه السلام، قوياً شديداً رادعاً زاجراً ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ في ضلال قديم وموروث وواضح الضلالة والغواية^(١).

(١) باختصار وتصرف من محاسن التأويل للقاسمي ٢٦٣/١١.

(هـ) التحدي

ومن الأساليب العملية في دعوة إبراهيم، عليه السلام، التحدي والوقوف بندية ضد الكفار وتحمل تبعة ذلك ما دام هو على الحق المبين، قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ [الأنبياء: ٥٧/٢١].

ودائماً ما نرى أن المشركين والكفار في كل عصر ومصر يتحدون أنبياء الله ورسوله، ويفترون عليهم ويطالبونهم بمسائل تظهر فيها صور التحدي، لذلك كان لا بد للأنبياء أن يتحدوهم في ذلك ليستبين أمر الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلِمٌ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِئَا بِبَيِّنَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٥﴾ [الأنبياء: ٥/٢١].

(و) المفصلة

يقول سبحانه وتعالى في سورة مريم: ﴿وَأَعَزَّلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ ﴿٨٨﴾ [مريم: ٤٨/١٩].

﴿وَأَعَزَّلَكُمْ﴾ أتباعد عنكم ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي من أصنامكم، والمراد بالدعاء هنا العبادة ﴿وَادْعُوا رَبِّي﴾ أي أعبدوا وحده ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي خائباً ضائع السعي، وفيه تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم مع التواضع بكلمة ﴿عَسَىٰ﴾ وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على أن الإجابة والإثابة بطريق التفضيل من الله تعالى^(١).

ولما تبين لإبراهيم، عليه السلام، أن أباه عدو لله، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير وأنه سيموت كافراً، تركه وترك الاستغفار له وتبرأ منه، فكانت

(١) محاسن التأويل، للقاسمي ١١/١٢٢.

المفاصلة بينه وبين أبيه مفاصلة الإيمان من الكفر، ونجد هذا المعنى واضحاً في سورة التوبة الآية ١١٤ قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ الآية.

وفي سورة الزخرف يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٣١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿١٣٢﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٦/٤٣-٢٨].

جاء في تفسير الإمام ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليفه إمام الخلفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، وجعل الكلمة الباقية وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان وهي (لا إله إلا الله) جعلها دائماً في ذريته يقتدي به فيها من هداة الله من ذرية إبراهيم عليه السلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي إليها»^(١).

(ز) الدعاء والتضرع إلى الله:

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٧/٢-١٢٩].

واذكر يا محمد حين رفع إبراهيم وإسماعيل أسس الكعبة، وهما يدعوان الله في خشوع: ربنا تقبل منا صالح أعمالنا ودعائنا إنك أنت السميع لأقوال عبادك العليم بأحوالهم، ربنا واجعلنا ثابتين على الإسلام، منقادين

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٧/٢٢٥.

لأحكامك، واجعل من ذريتنا أمة مسلمة منكادة لك بالإيمان، وبصرنا بمعالم عبادتك، وتجاوز عن ذنوبنا، إنك أنت كثير التوبة والرحمة لعبادك، ربنا وابعث في هذه الأمة رسولاً من ذرية إسماعيل يتلو عليهم آياتك ويعلمهم القرآن والسنة، ويظهرهم من الشرك وسوء الأخلاق، إنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء إذا أراد حدوثه، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها^(١).

لقد دعا إبراهيم ربه وتضرع إليه بعد أن أسكن ابنه إسماعيل مع أمه وادي مكة أن يجعل الله مكة بلداً آمناً، وأن يبعده وبنه أن يعبدوا الأصنام، لأن الأصنام تسببت في إبعاد كثير من الناس عن طريق الحق، إنك يا الله غفور للذنوب المذنبين بفضلك رحيم بهم، تعفو عن تشاء منهم، ويظهر ضعفه الله تعالى متضرعاً أنه أسكن ذريته بواد ليس فيه زرع ولا ماء بجوار بيتك المحرم، ربنا إني فعلت ذلك امتثالاً لأمرك ليؤدوا الصلاة، فاجعل قلوب خلقك تنزع إليهم وتحن، وارزقهم في هذا المكان من أنواع الثمار، لكي يشكروا لك عظيم نعمك، فاستجاب الله دعاءه، ربنا إنك تعلم ما نخفيه وما نظهره، وما يغيب عن علمك شيء من الكائنات في الأرض ولا في السماء، ثم يثني إبراهيم على الله تعالى على أن رزقه على كبر في السن ولذيه إسماعيل وإسحاق بعد دعائه أن يهبه ذرية صالحة، إن الله استمع لدعائه ولم يخيب رجاءه، ثم سأل الله أن يجعله مداوماً على أداء الصلوات على أتم وجه، وأن يجعل من ذريته من يحافظ عليها، وسأل الله أن يستجيب دعاءه ويتقبل عبادته، وأن يغفر له ما وقع منه مما لا يسلم منه البشر، وأن يغفر لوالديه من باب الإحسان إليهما، وأن يغفر للمؤمنين جميعاً يوم يقوم الناس للجزاء والحساب.

إن كل تلك المعاني تضمنتها بضع آيات في سورة إبراهيم، عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٢٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّْي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٦ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٢٧ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا نَخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ٢٨ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ٢٩ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ٣٠ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ٣١﴾ [إبراهيم: ٣٥-٤١].

ويقول تعالى في سورة الشعراء: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ٨٦﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ٨٧ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ٨٨ وَاعْفِرْ لِأَيِّ لَيْتَ إِنَّكَ كَانَ مِنَ الْمُضَالِّينَ ٨٩ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ٩٠﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٧].

قال إبراهيم داعياً ربه: امنحني العلم والفهم والحقني بال صالحين، واجمع بيني وبينهم في الجنة، واجعل لي ثناء حسناً وذكرًا جميلاً في الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة، واجعلني من عبادك الذين تورثهم نعيم الجنة، واصفح لأبي عن شركه بك، ولا تعاقبه عليه إنه كان ممن ضل عن سبيل الهدى وكفر بك، وهذا قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله، فلما تبين له ذلك تبرأ منه، ولا تلحق بي الذل يوم يخرج الناس من القبور للحساب والجزاء على أعمالهم التي عملوها في الدنيا^(١).

(١) انظر التفسير الميسر، نخبه من العلماء، ص ٣٧١.

(ح) تحطيم الأصنام

كما نعلم فإن إبراهيم، عليه السلام، حطم أصنام قومه التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، فقطعها إرباً إرباً فصارت مكسرة مهشمة، وترك أكبر الأصنام حتى إذا رجعوا إليه وجدوه سالماً دون الأصنام الأخرى، فليسألوه إن كان ينطق أو يفهم. فما فعله إبراهيم، عليه السلام، كان منهجاً عملياً في إزالة المنكر باليد، وليتحمل في سبيل ذلك كل صنوف العذاب ولو كان الإحراق بالنار. يقول تعالى: ﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْرِينَ ۖ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ [الأنبياء: ٥٧-٥٨].

ويقول الحق تبارك وتعالى في سورة الصافات: ﴿فَرَأَىٰ إِلَٰهَ الْهِنَمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ۝٩٢ فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۝٩٣ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ۝٩٤ قَالَ أَعْبُدُونِ مَا نَعْبُدُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩١-٩٦].

﴿فَرَأَىٰ إِلَٰهَ الْهِنَمِ﴾ أي ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وذلك أنهم قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً يترك لهم فيه ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ لأنهم لم يجيبوا عليه سؤاله لهم بعدم الأكل، ﴿فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ معناه مال عليهم ضرباً باليمين، لأنها أشد وأنكى، ولهذا تركهم جذاذاً ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ﴾ يسرعون، فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم فقال: ﴿أَعْبُدُونِ مَا نَعْبُدُونَ﴾ تعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ والله خلقكم وعملكم، فإله يصنع كل صانع وصنعه^(١).

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٢٦/٧.

(ط) الهجرة

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَبَيَّنَّا لُولُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٦١).

ونحنيا إبراهيم ولوط، عليهما السلام، بالهجرة إلى الأرض المباركة وهي أرض الشام، بورك فيها بكثرة الأنبياء وإنزال الشرائع التي هي طريق السعادتين، وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب العيش فيها للغني والفقير، وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين ولوط عليه السلام بسدوم^(١).

ويقول تعالى موضحاً هجرة إبراهيم عليه السلام في سبيل الله وقد هاجر إبراهيم إلى فلسطين ومن قبل إلى مكة البلد الحرام، ومن الذين صدقوا إبراهيم عليه السلام وتبعوا ملته لوط عليه السلام الذي هاجر معه حينما ترك إبراهيم عليه السلام قومه مهاجراً إلى الشام من أجل الدعوة إلى الله ونشر دينه في الأرض، يقول تعالى في هذا المعنى: ﴿فَأَمَّا لَوْطُ قَالَ إِنِّي أَهَاجِرُ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٢).

(ن) بناء البيت

ذكر الله تعالى قصة العمل الجليل الذي كلف به إبراهيم، عليه السلام، بإعادة بناء الكعبة وتطهيرها لتكون مثابة للناس وأمناً في عدة مواضع من كتابه العزيز، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَتِيسَ الْمَصِيرُ

(١) محاسن التأويل للقاسمي، ٢٧٠/١١.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٥-١٢٧].

واذكر يا محمد حين جعلنا الكعبة مرجعاً للناس يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه، وجمعاً لهم في الحج والعمرة والطواف والصلاة، وأمناً لهم، لا يغير عليهم عدو فيه، وقلنا: اتخذوا من مقام إبراهيم مكاناً للصلاة فيه، وهو الحجر الذي وقف عليه إبراهيم عند بنائه الكعبة، وأوحينا إلى إبراهيم وابنه إسماعيل: أن طهرا بيتي من كل رجس ودنس، صيانة للمتعبدين فيه بالطواف حول الكعبة أو الاعتكاف في المسجد والصلاة فيه، واذكر يا محمد حين قال إبراهيم داعياً: رب اجعل مكة بلداً آمناً من الخوف، وارزق أهله من أنواع الثمرات، وخص بالرزق من آمن بالله واليوم الآخر، قال الله: ومن كفر منهم فأرزقه في الدنيا وأمتعته متاعاً قليلاً، ثم ألجئه مرغماً إلى عذاب النار وبئس المرجع والمقام هذا المصير، واذكر يا محمد حين رفع إبراهيم وإسماعيل أسس الكعبة وهما يدعوان الله في خشوع: ربنا تقبل منا صالح أعمالنا ودعائنا إنك أنت السميع لأقوال عبادك العليم بأحوالهم^(١).

ويقول تعالى في سورة الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦/٢٢].

واذكر إذ دعونا إبراهيم وجعلنا له البيت مباءة مكاناً لعبادة الله وحده لا يشرك به شيئاً ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ من الأصنام والأوثان والأقذار لمن يطوف به ويقيم ويصلي فيه والقائمين بكثرة الصلاة بالإشارة إلى ذلك بقوله: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي الذين يركعون كثيراً ويسجدون كثيراً^(٢).

(١) التفسير الميسر، ص ١٩.

(٢) انظر تفسير محاسن التأويل للقاسمي، ١٨/١٢.

(ك) المبادرة بامتحان أمر الله بنبيح ابنه إسماعيل

وقد جاء هذا الأمر واضحاً بكل معانيه في آيات سورة الصافات:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَازِلِ آيَاتٍ أَذِجُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قَالَ يَتَابَعُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْعَابِدِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَاطَبَرُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَّ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٦].

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ﴿١٠١﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل، عليه السلام، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه وعمشي معه، وقد كان إبراهيم عليه السلام، يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد (فاران) وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك، وأعلم ابنه بأنه رأى في المنام أنه يذبحه ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه ﴿قَالَ يَتَابَعُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي امض لما أمرك الله به من ذبحي ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْعَابِدِينَ﴾ أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد، ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ ﴿١٠٣﴾ أكبّه على وجهه، فلما تشهد وذكر الله تعالى، إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت، مسلمين ومنقادين لأمر الله لأن رؤيا الأنبياء وحي من الله، فصارع إبراهيم ابنه إسماعيل على وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه ﴿يَتَاطَبَرُ﴾ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴿١٠٥﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٠٦﴾ خرج عليه كبش من الجنة، وحصل المقصود من رؤيا إبراهيم من إضجاع ولده للذبح ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ هكذا نصرف عمن

أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، وقد اختلف علماء السلف فيمن هو الذبيح إسماعيل أم إسحاق، والصحيح المقطوع به هو أن الذبيح الذي ذكره الله في كتابه العزيز هو إسماعيل عليه السلام قاله ابن عباس^(١).

والحقيقة التي لا بد أن نؤكد عليها في هذا المقام هو أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وليس كما يدعي اليهود في كتبهم أنه إسحاق، عليه السلام، وللأسف فإن بعض الكتاب المسلمين انجروا وراء القصص الإسرائيلية في مسألة الذبيح واختلفوا فيمن يكون الذبيح؟ ولكن الحقيقة التي تؤيدها الشواهد والأدلة والفهم الصحيح للآيات القرآنية التي استند إليها أصحاب التفسير بالأثر تؤكد أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

(١) باختصار من تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٢٧/٧ - ٣٥.

المحاضرة الخامسة

منهج القرآن الكريم في إثبات عقيدة البعث

سلك القرآن الكريم مسالك عدة في إثبات عقيدة البعث بعد الموت تجمع بين الجوانب الفطرية والعقلية والحسية.

المسلك الأول

الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة الحج:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتَفِقُ ويُنْفِقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرْدُ إِلَىٰ أَزْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِي أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٥-٧].

يقول سيد قطب: أم إن الناس في ريب من البعث؟ وفي شك من زلزلة الساعة؟ إن كانوا يشكون في إعادة الحياة فليتدبروا كيف نشأت الحياة،

ولينظروا في أنفسهم وفي الأرض من حولهم حيث تنطق الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور، ولكنهم هم الذين يعمرون على الدلائل في أنفسهم وفي الأرض غافلين، إن البعث إعادة حياة كانت، فهو في تقدير البشر أيسر من إنشاء الحياة وإن لم يكن بالقياس إلى قدرة الله شيء أيسر ولا شيء أصعب، فالبدء كالإعادة، ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ومنطقهم وإدراكهم، فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم، وهو يقع لهم في كل لحظة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ الإنسان من ترابها نشأ، ومن ترابها تكوّن، ومن ترابها عاش، ثم يبقى بعد ذلك سحر تحول النطفة إلى علقة، وتحول العلقة إلى مضغة، وتحول المضغة إلى إنسان، ومن العلقة إلى المضغة، ثم تتخلق فتتخذ شكلها بتحولها إلى هيكل عظمي يكسى باللحم أو يلفظها الرحم قبل ذلك إن لم يكن مقدراً لها التمام ﴿لَنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ دلائل القدرة بمناسبة تبين الملامح في المضغة، فما شاء الله أن يتم تمامه أقره في الأرحام حتى يحين أجل الوضع ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ بعد تسعة أشهر ﴿ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ فتستوفوا نموكم العضلي، ونموكم العقلي، ونموكم النفسي، وكم بين الوليد والإنسان الشديد من مسافات في المميزات، ولكنها تتم بيد القدرة المبدعة التي أودعت الطفل الوليد كل خصائص الإنسان الرشيد ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ فأما من يتوفى فهو صائر إلى نهاية كل حي، وأما من يرد إلى أرذل العمر فيعدم العلم والرشد والوعي، إذ هو يرتد طفلاً في تقديره وتديره ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ ولكي يفلت من عقله ووعيه ذلك العلم الذي ربما تخايل به وتناول وجادل في الله وصفاته بالباطل، ثم تستطرد الآية إلى عرض مشاهد الخلق والإحياء في الأرض والنبات بعد عرض مشاهد الخلق والإحياء في الإنسان ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ والهمود درجة بين الحياة والموت، وهكذا تكون الأرض قبل الماء، وهو العنصر الأصيل في الحياة والأحياء، فإذا نزل عليها الماء ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾

فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز، وهي تشرب الماء فتربو ثم تتفتح بالحياة عن النبات ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ﴾ وهل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد الكمون وتنتفض بعد الهمود؟ إنها لدليل على وحدة عنصر الحياة وعلى وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك في الأرض والنبات والحيوان والإنسان ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧) ﴿٧﴾ إن خلق الإنسان والنبات ذلك متعلق بأن الله هو الحق ﴿وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ﴾ فإحياء الموتى هو إعادة الحياة والذي أنشأ الحياة الأولى هو الذي ينشئها للمرة الأخيرة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ليلاقوا ما يستحقونه من جزاء، فهل البعث تقتضيه حكمة الخلق والتدبير، فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة، وهي تدل على البعث لأن الإرادة المدبرة تكمل تقدير الإنسان في الدارة الآخرة، وتشهد كلها على قدرة الله الخالق المدبر^(١).

ويقول تعالى في سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُخَيِّ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُخَيِّهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴿٧٩﴾ [يس: ٧٧-٧٩].

هذه الآية ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ﴾ مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث وللتعجيب من جهله، فإن مشاهد خلقهم في أنفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام وردها كما كانت، والإنسان المذكور في الآية

(١) باختصار من ظلال القرآن لسيد قطب، ٢٤٠٨/٤ وما بعدها.

المراد به جنس الإنسان ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إذا هنا فجائية ألم ير الإنسان أنا خلقناه من أضعف الأشياء ففجأ خصومتنا في أمر قد قامت فيه عليه حجج الله وبراهينه، والخصيم الشديد الخصومة الكثير الجدل، ومعنى المبين المظهر لما يقوله الموضح له بقوة عارضته وطلاقة لسانه ﴿قَالَ مَنْ يُغِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ هذا الاستفهام للإنكار لأنه قاس قدرة الله على قدرة العبد فأنكر أن الله يحيي العظام وهي رميم، العظام البالية حيث لم يكن في مقدور البشر ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ابتدأها وخلقها أول مرة من غير شيء ومن قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية، ولا يخرج عن علمه خارج كائناً ما كان، وهو القادر على البعث بعد الممات^(١).

ويقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَوْذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا أَوْنًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْثُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ [الإسراء: ٤٩/١٧-٥١].

يقول ابن كثير، رحمه الله، في تفسير هذه الآيات: ﴿أَوْنًا﴾ استفهام والمراد به الجحد والإنكار ﴿خَلْقًا﴾ يعني بعثاً جديداً، وكان هذا غاية الإنكار منهم، قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠﴾ أي: قل لهم يا محمد: كونوا على جهة التعجيز حجارة أو حديداً إن قدرتم، ومعناه أنكم لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم، ومعناه أيضاً: لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم

(١) فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني، طباعة دار الحديث، مصر، ط ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ٤/

﴿أَوْ خَلَقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني السماوات والأرض والجبال لعظمها في النفوس، وقال ابن عباس: يعني الموت، لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه، فالقادر على النشأة قادر على الإعادة ﴿فَسَيَقُضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ يحركون رؤوسهم باستغراب متعجبين من ذلك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ أي: البعث والإعادة وهذا الوقت ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: هو قريب لأن عسى واجب، نظيره ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ﴾ فالساعة آتية وكل آت قريب^(١).

ويقول تعالى في سورة مريم: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثٌ لَسَوْفَ أَخْرِجَ حَيًّا ۖ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (٧) ﴿٢﴾.

أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه وهو يعترض على البعث وهو غافل عن نشأته الأولى فأين كان؟ وكيف كان؟ إنه لم يكن ثم كان، والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر ﴿أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ ثم يعقب على هذا الإنكار والاستنكار بقسم تهديدي، يقسم الله تعالى بنفسه وهو أعظم قسم وأجله، إنهم سيحشرون بعد البعث فهذا أمر مفروغ منه^(٣).

إن الله تعالى يخلق الناس أولاً ثم يعيدهم بعد الموت، والإعادة أهون وأيسر لأنه يقول له يوم القيامة: كن فيكون، وابتداء الخلقة من نقطة، ثم من علقه، ثم من مضغة، وله المثل الأعلى فهو ليس كمثله شيء، ونجد هذه المعاني واضحة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٧) [الروم: ٢٧/٣٠].

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٣٩/١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٣٩/١٠، ٢٤٠.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٣١٧/٤.

المسلك الثاني

الاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيها

إن السماوات والأرض شاهدة بعظمتها على قدرة الله الخالق المبدع، لذا نجد أن الله تعالى يقسم بهما في كثير من آياته استدلالاً بهما على قدرته ووجوده ووحدانيته وسائر صفات كماله سبحانه وتعالى الخالق المبدع، وهي على عظمتها في الخلق دليل واضح على قدرة الله على البعث والنشور يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا وَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۖ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا ۖ﴾ ﴿٩٩﴾ [الإسراء: ٩٨-٩٩].

قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أن ذلك العذاب جزاء كفرهم ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا﴾ أي تراباً ﴿وَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه، قادر على أن يخلق مثلهم، والأجل مدة قيامهم في الدنيا ثم موتهم، وذلك مما لا شك فيه إذ هو مشاهد، وقيل: هو يوم القيامة ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا﴾ أي: المشركون إلا جحوداً بذلك الأجل وبآيات الله، وذلك الأجل هو وقت البعث لا ينبغي أن يشك فيه^(١).

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٩١/١٠.

ويقول تعالى في سورة يس: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨١﴾ [يس: ٣٦/٨١].

معنى الآية أن من قدر على خلق السماوات والأرض وهما في غاية العظم وكبر الأجزاء يقدر على إعادة خلق البشر الذي هو صغير الشكل ضعيف القوة، بلى هو القادر على ذلك، وهو القوي في الخلق والعلم على أكمل وجه وأتمه، ثم ذكر سبحانه ما يدل على كماله وكمال قدرته وتيسر المبدأ والإعادة عليه سبحانه العليم بكل شيء والقادر على فعل كل شيء^(١).

ويقول تعالى في سورة الأحقاف: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ يَخْلُقِينَ يَفْقَهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣٣﴾ [الأحقاف: ٤٦/٣٣].

لقد غفلوا ولم يعلموا أن الله الذي خلق السماوات والأرض على غير مثال سابق ولم يعجز عن خلقهن قادر على إحياء الموتى الذين خلقهم أولاً، بلى ذلك أمر يسير على الله تعالى الذي لا يعجزه شيء إنه على كل شيء قدير^(٢).

إن الآيات المتقدمة تدل دلالة واضحة على قدرة الله سبحانه وتعالى الذي خلق السماوات والأرض، قادر على بعث الموتى للحساب.

المسلك الثالث

الاستدلال بخروج النبات من الأرض

إن الله تعالى هو الذي يرسل الرياح الطيبة اللينة مبشرات بالغيث الذي يثمر بإذن الله، فيستبشر الخلق برحمة الله، حتى إذا حملت الريح السحاب

(١) راجع فتح القدير للشوكاني، ٥٣٩/٤.

(٢) التفسير الميسر، ص ٥٠٦.

المحمل بالمطر ساقه الله بها لإحياء بلد قد أجذبت أرضه، ويبست أشجاره وزرعه، فأنزل الله به المطر، فأخرج به الكلاً والأشجار والزروع، فعادت أشجاره محملة بأنواع الثمرات، كما يحيي الله هذا البلد الميت بالمطر يخرج الموتى من قبورهم أحياء بعد فنائهم، ليتعظ الناس فيوحدوا الله تعالى ويؤمنوا بقدرته على البعث قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيِّنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧/٧].

ويقول تعالى في سورة فاطر: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩/٣٥].
والله هو الذي أرسل الرياح فتتحرك سحباً، فسقناه إلى بلد جدد، فينزل الماء، فأحيينا به الأرض بعد يبسها فتخضر بالنبات، مثل ذلك الإحياء يحيي الله الموتى يوم القيامة^(١).

ومن آيات الله سبحانه وتعالى على قدرته على إعادة الموتى أنك ترى الأرض هامدة لا نبات فيها، بل هي ميتة، فإذا أنزل الله عليها الماء أخرجت من جميع أنواع الزروع والثمار، فالله الذي أحيا هذه الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الموتى من قبورهم لأن الله على كل شيء قدير فلا يعجزه شيء أبداً^(٢).

يقول تعالى في هذا المعنى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩/٤١].

(١) انظر التفسير الميسر، ص ٤٣٥.

(٢) بتصرف من تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١٨٢/٧.

المسلك الرابع

الاستدلال بوقائع حصل فيها الإحياء بعد الموت

هنالك أمثلة متعددة في القرآن الكريم تعدّ نماذج في أن الله تعالى أمات بعض الناس في الدنيا ثم أحياهم، ليعتبروا ويؤمنوا بالبعث بعد الموت ومن ذلك:

(أ) صاحب القرية

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩/٢].

مثل الذي مرَّ على قرية تهدمت دُورها، وخوت على عروشها فقال: كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها؟ فأماته الله مئة عام، ثم رد إليه روحه وبعث إليه من يسأله فقال له: كم بقيت في هذا المكان ميتاً؟ قال: بقيت يوماً أو بعض يوم، فأخبره بأنه بقي ميتاً مئة عام، وأمره أن ينظر إلى طعامه وشرابه وكيف حفظهما الله من التغير هذه المدة الطويلة، وأمره أن ينظر إلى حماره كيف أحياه الله بعد أن كان عظاماً متفرقة؟ وقال له: ولنجعلك آية للناس، أي دلالة ظاهرة على قدرة الله على البعث بعد الموت، وأمره أن ينظر إلى العظام كيف يرفع الله بعضها على بعض؟ ويصل بعضها ببعض، ثم يكسوها بعد الالتئام لحماً، ثم يعيد فيها الحياة؟ فلما اتضح له ذلك عياناً اعترف بعظمة الله، وأنه على كل شيء قدير، وصار آية للناس^(١).

ولم يسم الله صاحب القرية ولا القرية التي مر عليها وهي خاوية على عروشها حينما تساءل كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها، لحكمة يعلمها الحق تبارك وتعالى، وفي هذا الأمر يعلق صاحب الظلال بقوله: «إن القرآن لم يفصح عنها شيئاً، ولو شاء الله لأفصح، ولو كانت حكمة النص لا تتحقق إلا بهذا الإفصاح ما أهمله في القرآن»^(١).

(ب) إحياء الطيور لإبراهيم عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠/٢].

إنه التشوق إلى ملابس سر الصنعة الإلهية، وحين يحيي هذا التشوق من إبراهيم الأواه الحليم المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل فإنه يكشف عما يختلج أحياناً من التشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين، لقد كان ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ لقد أمره الله أن يختار أربعة فيقربهن منه ويميلهن إليه وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن، ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة ثم يدعوهم فتجتمع أجزاءهن مرة أخرى، وترتد إليهن الحياة، ويعدن إليه ساعيات، رأى إبراهيم هذا السر يقع بين يديه طيور فارقتها الحياة، وتفرقت مزقتها في أماكن متباعدة تدب فيها الحياة مرة أخرى وتعود إليه سعياً إنه علم الله العزيز الحكيم^(٢).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٩٩/١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣٠٢/١.

(ج) الملأ من بني إسرائيل

لقد صحح القرآن التصور عن الموت والحياة، فإن الحذر من الموت لا يجدي، وإن الفزع والهلع لا يزيدان الحياة، ولا يمدان أجلاً، ولا يردان قضاء، وإن الله هو واهب الحياة وهو آخذ الحياة، إن تجمع أولئك القوم، وهم ألوف وخروجهم من ديارهم حذر الموت كانت في تلك الحالة من الجزع والهلع، فهذا كله لم يغن عنهم من الموت شيئاً، فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم مرة أخرى، إن الله وهبهم الحياة من غير جهد منهم في حين أن جهدهم لم يرد الموت عنهم، وفضل الله على الناس عظيم فمن فضله نعمة الحياة التي يجب شكر الله سبحانه وتعالى عليها، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ أَبَدًا فِي حُلِيِّمُ الْمَقَامِ الْمُقِيمِ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

(د) قوم موسى السبعون الذين اختارهم الله

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

واذكر إذ قلتم يا موسى: لن نصدقك في أن الكلام الذي نسمعه هو كلام الله، حتى نرى الله عياناً، فنزلت نار من السماء رأيتموها بأعينكم فقتلتكم بسبب ذنوبكم وجراتكم على الله، ثم أحييناكم من بعد موتكم بالصاعقة، رجاء أن تشكروا نعمة الله عليكم، فهذا الموت عقوبة لهم، ثم بعثهم الله لاستيفاء آجالهم، فالقصة دليل واضح على إثبات عقيدة البعث بعد الموت^(١).

(١) التفسير الميسر، ص ٨.

(هـ) القتل الذي ضرب بعضو من أعضاء البقرة

إن قصة القتل الذي ضرب بعضو من أعضاء البقرة دليل على قدرة الخالق وحقيقة البعث وطبيعة الموت والحياة، لقد كانوا قتلوا نفساً منهم، ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه، ولم يكن هناك شاهد، فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتل ذاته، وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح، وهكذا كان فعادت إليه الحياة، ليخبر بنفسه عن قاتله، وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله، وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين، وهذا الأمر يسير في حساب القدرة الإلهية حتى يعقل الناس آيات الله ويدركوها طاعة واستجابة وتسليماً، لقد انتفض الميت مبعوثاً ناطقاً على ضربه من بعض جسد بقرة، بكاء مذبوحة، ليس فيها حياة ولا مادة حياة، ليلتقي جمال الأداء التعبيري بحكمة السياق الموضوعية في هذه القصة من قصص القرآن الكريم^(١). ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُزِيهِكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٢/٢-٧٣].

المسلك الخامس

الاستدلال بإخراج النار من الشجر الأخضر

إن الله سبحانه وتعالى بقدرته أخرج لنا من الشجر الأخضر الرطب ناراً محرقة، وفي هذا دليل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، ومن ذلك قدرته سبحانه إخراج الموتى من قبورهم أحياء ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠/٣٦].

(١) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب، ٧٩/١ وما بعدها.

يقول الإمام الشوكاني في تفسير هذه الآية: هنا رجوع منه سبحانه وتعالى إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم، فيدل سبحانه وتعالى على وحدانيته، ويدل سبحانه على قدرته على إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندي الرطب، وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ والمعروف بالعفار إذا قطع منها عودان وضرب أحدهما بالآخر انقذت منهما النار، وهما أخضران ﴿فَإِذَا أَنتَبَتْهُ تُوْقِدُونَ﴾^(١).

المسلك السادس

الاستدلال بحصول اليقظة بعد النوم

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦٠-٦٢].

وهو سبحانه الذي يقبض أرواحكم بالليل بما يشبه قبضها عند الموت، ويعلم ما اكتسبتم في النهار من الأعمال، ثم يعيد أرواحكم إلى أجسامكم باليقظة من النوم نهاراً بما يشبه الإحياء بعد الموت، لتقضى آجالكم المحددة في الدنيا ثم إلى الله تعالى معادكم بعد بعثكم من قبوركم أحياء، ثم يخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا ثم يجازيكم بذلك، والله تعالى هو القاهر فوق عباده فوقية مطلقة من كل وجه تليق بجلاله سبحانه وتعالى، كل شيء خاضع لجلاله وعظمته، ويرسل على عباده ملائكة يحفظون أعمالهم ويحصونها

(١) فتح القدير للشوكاني، ٥٣٩/٤.

حتى إذا نزل الموت بأحدهم قبض روحه ملك الموت وأعوانه، وهم لا يضيعون ما أمروا به، ثم أعيد هؤلاء المتوفون إلى الله تعالى مولا هم الحق ألا له القضاء والفصل يوم القيامة بين عباده، وهو أسرع الحاسين^(١).

ويقول تعالى في سورة الزمر مبيناً أيضاً العلاقة والشبه والتقارب بين النوم والموت بقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الزمر: ٤٢/٣٩].

في الآية دلالة على أن الأنفس تجمع في الملاء الأعلى، فيقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وإحياء الأرواح إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله لها أن تتعارف ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ [الزمر: ٤٢/٣٩] التي قد ماتت ويرسل الأخرى يتركها إلى أجل مسمى إلى بقية أجلها، وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء، وفي هذا آيات دالة على قدرة الله على البعث لمن أعمل النظر وتفكر في آيات الله سبحانه وتعالى^(٢).

المسلك السابع

الاستدلال بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأوجده على ظهر البسيطة، وأغدق عليه من النعم ما لا تحصى، لأداء وظيفة العبادة لله سبحانه وتعالى فلم يخلق الله الإنسان عبثاً، ولو لم تكن هنالك دار آخرة يحاسب الإنسان على ما عمل فيها في الدنيا لانتفت الحكمة من تكليف الإنسان بالعبادة، لذا فإن الله تعالى لم يخلقنا عبثاً ولن يتركنا سدى كما يعتقد منكرو البعث ومتبعو الهوى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦/٧٥].

(١) التفسير الميسر، ص ١٣٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١٠٢/٧.

فلن يترك الإنسان هماً لا يؤمر ولا ينهى ولا يحاسب ولا يعاقب.
ويقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥/٢٣).

يقول الشيخ القاسمي في تفسير هذه الآية: «أفحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة حتى أنكرتم البعث» ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء ﴿فَعَلَى اللَّهِ﴾ أي: تعاظم عما تصفون لأنه ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ المتصرف وحده الذي قصد بالخلق معرفته وعبادته والذي لا يترك الجزاء بل يحق الحق».

إن النظرة المادية للحياة تجعل تفكير الإنسان مقصوراً في تحصيل ملذاته العاجلة ويكون عمله محصوراً في نطاق ذلك فلا يتجاوز تفكيره ما وراء ذلك من العواقب ولا يعمل له ولا يهتم بشأنه ولا يعلم أن الله جعل هذه الحياة الدنيا مزرعة للآخرة، فجعل الدنيا دار عمل وجعل الآخرة دار جزاء، فمن استغل دنياه بالعمل الصالح ربح الدارين، ومن ضيع دنياه ضاعت آخرته، فالله لم يخلق هذه الدنيا عبثاً، بل خلقها لحكمة عظيمة، أوجد الله سبحانه في هذه الحياة من المتع العاجلة والزينة الظاهرة من الأموال والأولاد والجاه والسلطان وسائر المستلذات ما لا يعلمه إلا الله، فمن الناس وهم كثر من قصر نظره على ظاهرها ومفاتها ومتع نفسه بها ولم يتأمل في سرها، فانشغل بتحصيلها وجمعها والتمتع بها عن العمل لما بعدها، بل أنكر أن تكون هناك حياة غيرها، فهي نظرة بهيمية لأن البهائم ليس لها مصير ينتظرها، وليس لها عقول تفكر بها، بخلاف أولئك أصحاب النظرة المادية وإن كانوا أهل خبرة في المخترعات والصناعات فهم جهال لا يستحقون أن يوصفوا بالعلم، لأن علمهم لم يتجاوز ظاهر الحياة الدنيا، لكن النظرة الصحيحة للحياة الدنيا هي أن يعتبر الإنسان ما في هذه الحياة الدنيا من مظاهر مادية وسيلة يستعان بها لعمل الآخرة، فالدنيا لا تدم لذاتها إنما الذم والمدح إلى فعل العبد فيها، فهي معبر للآخرة، وهي زاد

الجنة، فهي دار الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله والتسابق للخيرات للفوز برضوان الله في الآخرة»^(١).

(١) انظر كتاب التوحيد للدكتور صالح بن فوزان الفوزان، ط مكتبة الأثير، الرياض ٤٦.

المحاضرة التاسعة

الصلاة في القرآن الكريم

الصلاة أهم أركان الإسلام، بعد النطق بالشهادتين، وهي عماد الدين وأساسه الأصيل، الذي لا يقوم البنيان من دونه، والحاجز بين الإنسان ووقوعه في الكفر هو الصلاة، فمن تركها فقد وقع في هوة الكفر، وانسلخ من ربة الإيمان، وتجب الصلاة على المسلم البالغ العاقل حين دخول وقتها، وأن تكون المرأة طاهرة من الحيض والنفاس.

المبحث الأول

أدلة فرضيتها في القرآن الكريم

يقول تعالى مبيناً فرضية الصلاة في كتابه العزيز: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَآذِكُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣/٢].

وهذه الآية تشير بوضوح إلى أن الدخول في الإسلام يكون بإقامة الصلاة بعد النطق بالشهادتين، إقامتها على الوجه الصحيح كما جاء بها نبي الله ورسوله محمد ﷺ، وتكونوا مع الراكعين من أمته ﷺ^(١).

ويقول تعالى في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ

(١) التفسير الميسر، ص٧.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِنَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِنَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ [النساء: ٧٧/٤].

ويقول تعالى في السورة ذاتها: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَفَعَدُوا وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣/٤].

في الآيات السابقة تكليف للمؤمنين بالصلاة حتى في وقت الحرب والاشتغال بقتال الأعداء، وفي حالة ترقب الموت، دليل واضح على أهمية هذا الواجب في تزكية النفوس، وفي الحصول على رضا الله، ولا ريب أن الصلاة وهي مناجاة بين العبد وربّه، تبعث على مراقبة الله، واستشعار عظمته، وتجعل الإنسان في حذر دائم من مخالفة أحكامه، أو التقصير في حدوده، وبذلك يكمل للروح تهذيبها، وللنفس قوتها وصلاحتها، وحسب المؤمنين في العناية بها أنها الركن الأول من أركان الدين بعد شهادة التوحيد والرسالة^(١).

ويأمر الله النبي الكريم ﷺ بأداء الصلاة على أتم وجهه طرفي النهار في الصباح والمساء وفي ساعات الليل، لأن فعل الخيرات يكفر الذنوب ويمحو آثارها، والأمر بإقامة الصلاة وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات موعظة بليغة ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤/١١].

ويقول تعالى مبيناً فرضية الصلاة في سورة إبراهيم: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاتَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١/١٤].

(١) تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت، ص ٢٥٦.

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: يقول تعالى آمراً العباد بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها^(١).

ويأمر الله تعالى بإقامة الصلاة تامة من وقت زوال الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل، ويدخل في هذا صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، كما يأمر بإقامة صلاة الفجر، لأن صلاة الفجر يشهدها الملائكة المقربون فلا بد من إطالة القراءة فيها ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَى اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨/١٧].

ويقول تعالى في سورة الحج ذاكراً الجهاد مع إقامة الصلاة والزكاة: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨/٢٢].

فالآية الكريمة تشير إلى المحافظة على معالم الدين وأركانه بأداء الصلاة بأركانها وشروطها، وإخراج الزكاة المفروضة، ويأمرنا الله أن نلجأ إليه ونتوكل عليه، فهو نعم المولى لمن تولاه ونعم النصير لمن استنصره.

ويقول تعالى في سورة العنكبوت: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥/٢٩].

ويبين الحق تبارك وتعالى فرضية صلاة الجمعة في كتابه العزيز فيقول:

(١) تفسير القرآن الكريم لابن كثير، ٤/ ٥١٠.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الجمعة: ٩/٦٢].

والمراد بالنداء هنا النداء الثاني الذي يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه، وأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنما كان لكثرة الناس، وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون النساء والصبيان، ويعذر المسافر والمريض وأصحاب الأعذار، ويجرم البيع بعد النداء الثاني، وفي ترك البيع والإقبال إلى ذكر الله والصلاة خير لنا في الدنيا والآخرة^(١).

ويبين الشيخ الصابوني فرضية صلاة الجمعة بقوله: «فرض الله صلاة الجمعة في كل أسبوع مرة واحدة ليسرع كل مسلم إلى الصلاة، يستمع كلام الله، وحديث المصطفى ﷺ وموعظة الخطيب، فيكون له زاداً إيمانياً، ويجتمع بإخوانه المؤمنين في ذلك الجمع المبارك، فيتفقد غائبهم، ويعين محتاجهم، ويعود مريضهم، ويصالح المختصمين، ويبذل نصحه للمقصرين، كما يتعلم الآداب الرفيعة في الاجتماع من السلام والاحترام والبشاشة التي تجعل المجتمع في سلام وأمان، لهذا كله فرض الله سبحانه وتعالى صلاة الجمعة على كل مسلم وأمره أن يسعى إليها وحثه على أدائها^(٢)».

وقد كانت فرضية الصلاة من العبادات المشتركة بين الأديان السماوية، فقد أمر الله عباده في كل حين بأداء الصلاة وإيتاء الزكاة وجعلها من أركان كل دين، لأن الصلاة هي العبادة التي تصل العبد بربه سبحانه وتعالى، يقول تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥/٩٨].

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١٢٢/٨.

(٢) أحكام الصلاة والطهارة للشيخ محمد علي الصابوني، ط دار القرآن الكريم، بيروت ١٤١٨هـ،

المبحث الثاني

منزلة الصلاة في القرآن الكريم

يقول تعالى في سورة البقرة عن منزلة الصلاة في ثلاثة مواضع من هذه السورة الكريمة: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥/٢].

وقوله: ﴿وَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠/٢].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣/٢].

الاستعانة بالصبر تكرر كثيراً فهو الزاد الذي لا بد منه لمواجهة كل مشقة، والصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب، صلة يستمد منها القلب القوة، وتحس فيها الروح صلة، وتجدد فيها النفس الزاد، ويتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيراً ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات، ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر، فهي المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد، المعين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب، ثم يضيف إلى الصبر الرضى والطمأنينة والثقة واليقين^(١).

إن المداومة على أداء الصلاة في وقتها المعلوم، وهيئتها المشروعة، الواردة عن النبي ﷺ، تكسب العبد صفة الإيمان، وتجعله من الوارثين

لأعلى منازل الجنة، فالذين هم فيها لا ينقطع نعيمهم ولا يزول ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ [المؤمنون: ٩-١١].

كما بين الحق سبحانه وتعالى منزلة الصلاة ومكانتها العظيمة في سورة العنكبوت: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٤٥) [العنكبوت: ٤٥].

ويقول تعالى في سورة الأعلى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

قد طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة وتابع ما أنزل الله على رسوله ﷺ وأقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله، وطاعة لأمره وامتنالاً لشرعه^(١).

المبحث الثالث

الخشوع في الصلاة

إن الخشوع في الصلاة شرط من شروط صحتها، وركن من أهم أركانها، وصفة إيمانية عظيمة، يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

والأمر هنا بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين، فلا بد من إقامتها في أوقاتها، وإقامتها صحيحة الأركان مستوفية الشرائط، أما الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر، وتخصيصها بالذكر لأن وقتها يجيء

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٨/ ٣٨١.

بعد نومة القيلولة وقد تفوت المصلي، والأمر بالقنوت هو الخشوع لله والتفرغ لذكره في الصلاة، فلا شغل في الصلاة لغير ذكر الله والخشوع له والتجرد لذكره^(١).

ويقول تعالى في صفة الخاشعين في صلاتهم بأنهم مؤمنون كاملو الإيمان، وأنها سبب لفوزهم وفلاحهم، لأنهم فرغوا قلوبهم من مشاغل الدنيا، وهم في صلاتهم يقفون بين يدي الله سبحانه وتعالى، بل لقد سكنت جوارحهم بذكره تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/١-٢].

إن الغرض من العبادات إنما هو الخشوع لله سبحانه باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، أما الصلاة فهي أهم أركان الدين الإسلامي فقد فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده ليعبدوه وحده، لا يشركوا معه أحداً من خلقه في عبادته، فالصلاة فرض محدود بأوقات لا يجوز الخروج عنها، فالصلوات الخمس تطهر النفوس وتنظفها من الذنوب والآثام، إن الغرض الحقيقي من الصلاة إنما هو تعظيم الإله فاطر السماوات والأرض بالخشوع له، والخضوع لعظمته الخالدة، وعزته الأبدية، فلا يكون المرء مصلياً لربه حقاً إلا إذا كان قلبه حاضراً مملوءاً بخشية الله وحده، فلا يغيب عن مناجاته بالوساوس الكاذبة أو الخواطر الضارة، ومن يقف بين يدي خالقه وقلبه على هذه الحالة ذليلاً خاشعاً، خائفاً وجللاً من جلال ذلك الخالق القادر القاهر، ذي السطوة التي لا تحد، والمشئة التي لا ترد فإنه بذلك يكون خاشعاً مستقيماً قوياً في علاقته مع ربه^(٢).

(١) باختصار من ظلال القرآن، سيد قطب ١/٢٥٨.

(٢) بتصرف من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، عبد الرحمن الجزيري، طباعة دار الفكر - بيروت، ط أولى ١٤١٧/١٩٩٦م، ١/١٦٠ وما بعدها.

المبحث الرابع

أثر الصلاة في حياة الفرد والمجتمع

الصلاة هي الرباط الروحي الذي يصل المسلم بربه بعد الإيمان به تعالى، ولذا قال تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ على معنى وأقم الصلاة لتذكركني، وهي نور يشرق في جنبات النفس الإنسانية، فيجعل المسلم ينظر إلى الحياة نظرة خاصة به أساسها الفهم عن الله، والوقوف عند حدوده، وتعظيم ما عظم الله، وتحقير ما حقره، فلا يتلوث بشيء يندسه، ولا يرتع في شهوات يعلم أنها تجلب عليه مقت الله وغضبه.

يقول تعالى في سورة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٧].

يقول ابن كثير: «جعل الله بيته محرماً ليمكن أهله من إقامة الصلاة عنده، ربي إني فعلت ذلك بأمرك لكي يؤدوا الصلاة بحدودها، وارزقهم حتى يشكروا لك عظيم نعمك»^(١).

إن اتباع الهوى والشيطان يجعل الناس يتركون الصلاة ويفوتونها عن وقتها، ويتركون أركانها وواجباتها، ويتبعون ما يوافق شهواتهم ويلائمها، فسوف يلقون شراً وضلالة وخيبة، لأن ترك الصلاة وإضاعتها أثر في سلوكيات هؤلاء الأفراد فانحرفوا عن جادة الطريق، فوقعوا بذلك في المهالك الموصلة لجهنم وبئس المهاد قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ١٩/٥٩].

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٥١٣/٤.

وقد وعد الله الجماعة المؤمنة بالنصر والتمكين في الأرض، فلما تحقق لهم ذلك، واستخلفهم الله في الأرض بإظهارهم على عدوهم، أقاموا الصلاة، مداومين عليها، محافظين عليها، خاشعين فيها، وبإقامة الصلاة بالكيفية المطلوبة أثرت الصلاة في سلوكهم فأحكموا الشريعة، وأتمروا بأمر الله، وانتهوا عن نهيهِ، فلذلك كانوا أهلاً لتمكين الله لهم بإقامة الشعائر التعبدية والحفاظ على المجتمع طاهراً قوياً متماسكاً في وحدته الإسلامية محتكماً إلى شريعة الله تعالى القائل: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١/٢٢].

ويقول تعالى في سورة العنكبوت: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥/٢٩].

إن المحافظة على الصلاة تنهى صاحبها عن الوقوع في المعاصي والمنكرات، وذلك لأن المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها يستنير قلبه، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تنعدم رغبته في الشر، ولذا ذكر الله في الصلاة وغيرها أعظم وأكبر وأفضل من كل شيء^(١).

ويقول تعالى في سورة المعارج مبيناً أثر الصلاة في حياة المجتمع المسلم وكيف أن إقامة الصلاة تقي المجتمع من الشرور والمهالك قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٣﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٥﴾﴾ [المعارج: ١٩/٧٠-٢٣].

(١) التفسير الميسر ص ٤٠١.

الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه، وهؤلاء هم المصلون المحافظون على الصلاة في أوقاتها، فهم دائمون على صالح الأعمال، لأن أحب الأعمال إلى الله أدومها، فعلينا بالصلاة لأنها خلق المؤمنين الحق^(١).

والصلاة إلى جانب ذلك كله رباط اجتماعي نظيف طاهر قوي، فالمسلم حين يلتقي بأخيه المسلم في المسجد على هدف واحد هو إرضاء الله تعالى، ثم يقف بجواره في صف الصلاة، ويشاهده بين الحين والحين، ذاهباً إلى المسجد، وواقفاً مثله بين يدي الله، فإن ذلك يشد كل مصل إلى أخيه ليتعارفاً، ويتألفا، ويتشاركوا وجدانياً وعاطفياً، وبذلك توجد بينهما وحدة من صنع الله وضاء بريئة، ذات أثر إيجابي حين يصدق هذا الإخاء، وتستمر هذه الوحدة الإسلامية الأصيلة، والصلاة نظام ونظافة، وعمل وحركة، وعلم وتطبيق، وتراحم وتعاطف، وتربية نفس وقوة روح، واتزان واعتدال، فما أجدد أن تسمى الصلاة حياة الفرد المسلم وحياة المجتمع المسلم، فهي بحق مدرسة التربية الإسلامية العالية التي تربي الفرد والمجتمع على حد سواء^(٢).

المبحث الخامس

الثواب العظيم لمقیمی الصلاة

أعد الله سبحانه وتعالى ثواباً عظيماً للمقيمين للصلاة، الدائمين عليها المحافظين والخاشعين، أجر الصلاة كبير وكثير وعظيم، ثواب جزيل وأجر

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٢٦/٨.

(٢) بتصرف من كتاب تعليم الطهارة والصلاة، الشيخ حسن أيوب، طباعة دار العلم الكويت، الطبعة الخامسة، ١٣٩٧هـ، ص ١٠ وما بعدها.

دائم غير منقوص ولا ممنوع ولا مقطوع، فمن أجر الصلاة العاجل في الدنيا أنها تبعث في نفس صاحبها الأمن والطمأنينة، وفي الآخرة الثواب الموصل لجنت الله ورضوانه.

يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٧].

إن الله سبحانه وتعالى يعد الذين يقيمون حياتهم على الإيمان والصلاة والعبادة والتعاون، أن يحتفظ لهم بأجرهم عنده، ويعدهم بالأمن فهم لا يخافون، وبالسعادة فهم لا يحزنون، وهذا رخاء عظيم لمن آمن بالله وربط حياته بالعمل الصالح وبالصلاة التي هي عماد الدين فما أعظمه من أجر وما أجزله من ثواب^(١).

ويقول تعالى في سورة النساء: ﴿لَكِنَّ الزَّاسِحُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/١٦٢].

الصابون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع، والمؤمنون بما أرسل به محمد ﷺ، ويقيمون الصلاة معترفين بوجوبها وكتابتها عليهم، أولئك المتصفون بهذه الصفات سيؤتيهم الله تعالى الأجر العظيم يعني الجنة^(٢).

إن الذين يؤمنون بالله ويتمسكون بما أنزل من الينات ويقيمون الصلاة، لن يضيع أجرهم عند الله فهو محفوظ ومدخر عنده سبحانه وتعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٠].

(١) ظلال القرآن ٣٢٩/١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧٧٨/١.

الذين يداومون على الصلوات المفروضة في أوقاتها، وينفقون أموالهم في سبيل الله، هم المؤمنون حقاً ظاهراً وباطناً بما أنزل الله عليهم، لهم منازل عالية عند الله، وعفو عن ذنوبهم ورزق كريم وهو الجنة ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٢) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾ [الأنفال: ٣/٤-٤].

ويقول تعالى في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا يَتَّبِعُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٣) [التوبة: ١٨/٩].

يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: «في الآية دليل بشهادة الإيمان الصحيحة لعمَّار المساجد، لأن الله سبحانه وتعالى ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها، ولم يخش إلا الله مما يُعبد، فلم يخف في باب الدين إلا الله، فخليق بهم، وعسى من الله واجبة، أن يكونوا من المهتدين»^(١).

والصابرون على الأذى، وعلى الطاعة، وعن المعصية طلباً لرضا ربهم، وأدوا الصلاة على أتم وجوهاها، وزكوا، وأنفقوا ودفعوا بالحسنة السيئة، أولئك الموصوفون بهذه الصفات لهم العاقبة الحمودة في الآخرة ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عِقَابٌ أَلَدٌ﴾ (٣) [الرعد: ٢٢/١٣].

ويقول تعالى في سورة النور: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ [النور: ٢٤/٣٧-٣٨].

رجال لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لمستحقيها، يخافون يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب بين الرجاء في النجاة والخوف من الهلاك، وتتقلب فيه الأبصار، ينظر إلى أي مصير تكون؟ ليعطيهم الله ثواب أحسن أعمالهم، ويزيدهم من فضله بمضاعفة حسناتهم، والله يرزق من يشاء بغير حساب، بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله وبلا عدد ولا كيل^(١).

إن الذين يقرؤون القرآن، ويعملون به، وداوموا على الصلاة في أوقاتها، والمنفقين بالليل والنهار، سرّاً وعلانية، ويرجون بذلك العمل تجارة مع الله رابحة لا تكسد ولا تكهل، وهي رضا الله ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، هؤلاء سيوفهم الله تعالى ثواب أعمالهم كاملاً غير منقوص ويضاعف لهم الحسنات من فضله، إن الله عفور لسيئاتهم، شكور لحسناتهم، يشيهم عليها الجزيل من الثواب، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَةً لَّنْ تَبُورَ ۖ لِيُؤْتِيَهُمَ أَجْرَهُمْ وَيزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٥-٣٠].

مما تقدم في الحديث عن الصلاة، يتبين لنا منزلة الصلاة الكبرى في الإسلام، حيث لا تعدلها أي عبادة أخرى، فالصلاة عماد الدين، وهي الحد الفاصل بين الكفر والإيمان كما بينا، ولا خلاف بين أئمة المسلمين في كفر من ترك الصلاة منكرّاً لوجوبها، أما إذا كان تركه لها تكاسلاً مع اعتقاده لوجوبها فيعتبر فاسقاً وعاصياً يحمل ويستتاب عليها، حتى يعود للصلاة، وعرفنا أن الصلاة هي دعامة كل الأديان، وقد كانت الصلاة أقدم عبادة لأنها من مستلزمات الإيمان، والصلاة هي طريق النجاح

والسعادة في الدارين، إن صلاها المسلم بخشوع، فالخاشع هو الذي يخضع قلبه، ويسيطر عليه الرهبة والخوف والرجاء، وهو من دعائم قبول الصلاة عند الله تعالى، والصلاة ثقيلة على النفوس باستثناء الذين خشعت قلوبهم وحرصت على القربى من الله.

يقول الشيخ عفيف طيارة في كتابه (روح الصلاة) متحدثاً عن خصائص الصلاة: «فالصلاة في الإسلام بما تحتويه من مراقبة الله وقيام وسجود له وما تشتمل عليه من معاني القربى له، تربط المصلي بخالقه وتشعره بعلو مكانته في نظر نفسه، حتى يرى من آثار الكرامة ما يستقذر معه الإتيان بالقبايح، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر»^(١).

وبعد فإن الصلاة هي عماد الدين لا يقوم الدين إلا به، فهي رأس الأمر في الإسلام، فهي الذكر الدائم، وقد بلغت عناية الإسلام بالصلاة بالمحافظة عليها في الحضر والسفر، والأمن والخوف، والصلاة من الأمور الكبرى التي تحتاج إلى هداية خاصة، وترك الصلاة جحوداً بها وإنكاراً لها كفر وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، أما من تركها مع إيمانه بها واعتقاد فرضيتها، ولكن تركها تكاسلاً أو تشاغلاً عنها، بما لا يعد في الشرع عذراً فهو كافر يجب قتله، مع أن أبا حنيفة ومالكاً والشافعية على أنه لا يكفر، بل يفسق ويستتاب وعارضوها ببعض النصوص العامة^(٢).

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المقيمين للصلاة المداومين والمحافظين عليها.

(١) روح الصلاة في الإسلام للشيخ عفيف عبد الفتاح طيارة، طباعة دار العلم للملايين بيروت ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م الطبعة الخامسة، ص ٣٢.

(٢) فقه السنة العبادات، للشيخ السيد سابق، دار البيان، مصر، الطبعة الثانية ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ٩٠/١.

المحاضرة الثالثة عشرة

مثال تطبيقي للوحدة الموضوعية لبعض سور القرآن الكريم

تفسير سورة تفسيراً موضوعياً

(تفسير سورة النور)

المبحث الأول

بين يدي السورة

سورة النور مدنية، نزلت بعد سورة الحشر، وعدد آياتها أربع وستون آية، وسميت بهذا الاسم لكثرة ذكر النور فيها كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥/٢٤].

وقوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥/٢٤].

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠/٢٤].

وقد ذكر النور في هذه السورة بلفظه متصلاً بذات الله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، كما ذكر فيها النور بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح، فمثل هذه الآثار في الآداب والأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه

السورة، وهي آداب وأخلاق نفسية وعائلية وجامعية، تنير القلب، وتنير الحياة، وهي مستمدة كلها من ذلك النور الكبير^(١).

ويدور موضوع هذه السورة حول التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود، وترقى إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيعة التي تصل القلب بنور الله، وبآياته الماثلة في تضاعيف الكون وأثناء الحياة، وقد بدأت السورة بتقرير هذه السورة وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف، وآداب وأخلاق ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١/٢٤].

فيدل هذا البدء على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية وفي نظرة الإسلام عن الحياة الإنسانية^(٢).

المبحث الثاني

خصائص السورة

اختصت سورة النور ببيان الحدود الشرعية لبعض الجنايات التي تصيب النفس البشرية وأن هذه الحدود، هي الوسيلة الوحيدة لقمع شرور النفس الإنسانية التي لو تركت بغير هذه الحدود لمألت الأرض فساداً وفجوراً وفسوقاً.

فالخاصية الأولى: هي محاربة الفاحشة (الزنا) بكل أشكاله حتى يبتعد الناس من الاقتراب منها والوقوع في شرورها.

(١) دراسات في التفسير الموضوعي، د زاهر الألمعي؛ ص ١٥٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٤٨٦/٤.

والخاصية الثانية: هي محاربة القذف وعلّة التشديد فيه حتى تصان أعراض الناس بصفة عامة والمسلمين بصفة خاصة، من ضعاف النفوس، الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بكل وسائل النهش في أعراض الناس، فكان حد القذف هو الحصن الحصين من شر السنة الفساق.

والخاصية الثالثة: هي تمييز الخبيث من الطيب، فيجمع الخبيث مع مثله، والطيب مع ما يماثله من الطيبين وتحدد هذه العلاقة التي تربط بين هؤلاء وهؤلاء.

والخاصية الرابعة: الآداب الاجتماعية من محاربة الفوضى في العلاقة والتعامل بين الرجال البالغين والنساء البالغات، بين المحارم وغير المحارم، فلا بد من محاربة الاختلاط بين النساء والرجال، حتى تكتمل أسباب العفة، ويصبح المجتمع طاهراً نظيفاً بعيداً عن كل الشبهات، ومصادد الشيطان العدو للدود للإنسان والإنسانية.

والخاصية الخامسة: تحدثت عن آداب الجماعة المسلمة مع المربي والقُدوة الرسول الكريم محمد ﷺ.

والخاصية السادسة: أشارت إلى ملك الله الواسع، وعلمه بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية، فالناس جميعاً راجعون إليه ليحاسبهم على أعمالهم التي يحصيها بقدرته وعلمه بهم فيجازيهم عليها.

المبحث الثالث

أهداف السورة

تتلخص أهداف هذه السورة فيما يلي^(١):

(١) راجع أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، د. عبد الله محمود شحاته، ط الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٦م، ص ٢٥٥.

- ١- التربية الإسلامية الهادفة لطهارة الفرد وسلامة المجتمع.
- ٢- الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة والقيم الروحية السامية.
- ٣- الأحكام الحدية الزاجرة لشرور النفس الإنسانية، كحد الزنا، وحد القذف، والأحكام العامة في أثناء آياتها البينات.
- ٤- إحياء القيم الإيمانية الفاضلة التي تربط المؤمنين بنور الله.
- ٥- سورة النور دعوة هادفة إلى إضاءة القلب بتعاليم السماء، لتكون حصناً متيناً للفرد والمجتمع من الانحلال والتردي في الخطيئة فقد أمرت السورة بغض البصر، وحفظ الفروج، ونهت عن دخول البيوت بغير إذن من أهلها، وبينت عقوبة البهتان، وإلصاق التهم والافتراء على المستقيمين من عباد الله، كما ذمت إشاعة الفاحشة، وأظهرت عجائب صنع الله في الكون، وحثت على التوبة، وأبانت الطريق الصحيح للإنسان، ورفعت عنه عوامل الإحباط والانتكاس، وأبانت أن الله مطلع على كل شيء.
- ٦- ضرب المثل بنور الله الذي أشرق به الظلمات في السماوات والأرض، النور الذي لا ندرك كنهه ولا مداه، إنما هي محاولة لوصل القلوب به، فحيثما توجه إليه القلب رآه، وحيثما تطلع إليه الحائر هداه، إنما المثل الذي ضربه الله لنوره وسيلة لتقريبه إلى المدارك، والله نور السماوات والأرض العليم بطاقة البشر، يهدي الله لنوره من يشاء^(١).

(١) انظر الأمثال في القرآن، محمود بن الشريف، دار عكاظ جدة، ص ٩٨.

المبحث الرابع

موضوعات السورة

تدور موضوعات سورة النور من خلال أهداف السورة الكريمة حول خمسة مواضيع في وحدة موضوعية متناسقة:

الموضوع الأول

يتضمن بداية السورة التي فرضها الله في بيان حد الزنا، وتفظيع هذه الفعلة، ثم بيان حد الفعلة، ثم بيان حد القذف، واستثناء الأزواج من هذا الحد مع التفريق بين الزوجين بالملاعنة، وتطرق السورة إلى حادثة الإفك، وأقرت مشاكلة الخبيثين للخبيثات، ومشاكلة الطيبين للطيبات.

الموضوع الثاني

تناول وسائل الوقاية من الجريمة، وتجنب النفوس أسباب الإغراء والغواية، فتبدأ السورة بأداب البيوت والاستئذان على أهلها، والأمر بغض البصر، والنهي عن إبداء الزينة لغير المحارم، والحض على إنكاح الأيامي، والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء، إنها أسباب وقائية لضمان الطهر والتعفف في عالم الضمير والشعور، ودفع المؤثرات التي تهيئ الميول الحيوانية من صور خليعة ترهق أعصاب الطاهرين وهم يقاومون عوامل الإغراء والإفساد^(١).

الموضوع الثالث

هو مجموعة الآداب التي تضمنتها السورة وربطها بنور الله، وإعمار

(١) انظر دراسات في التفسير الموضوعي، د. الأملعي، ص ١٥١.

بيوت الله بالذكر والطاعة، وفي الجانب الآخر تصف الذين كفروا وما يقومون به من أعمال، بالسراب في لمعانه وعدم حقيقته، لأنها ظلمات بعضها فوق بعض.

الموضوع الرابع

نور الله تعالى في الآفاق، في تسبيح الخلائق كلها بعظمته سبحانه، وفي إزجاء السحاب، وفي تقليب الليل والنهار، وفي خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، ومنهم من يمشي على بطنه، فتختلف في أشكالها ووظائفها وأنواعها وأجناسها، مما هو مشاهد في الكون للبصائر والأبصار.

الموضوع الخامس

تحدثت السورة عن مجافاة المنافقين للأدب الواجب مع رسول الله ﷺ في الطاعة والتحاكم، ويصور أدب المؤمنين مع ربه بالإخلاص والطاعة، ووعد الله لهم بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين لهم، ونصرهم على الكافرين.

الموضوع السادس

آداب الاستئذان والضيافة، داخل البيوت بين الأهل والأصحاب، وآداب الجماعة المسلمة واحترامها وتقديرها وطاعتها واتباعها للرسول القدوة محمد ﷺ.

الموضوع السابع

الله مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، رب السماوات والأرض وما بينهما، العالم بواقع الناس، وبكل

شيء، لتشير تلك العظمة الإلهية للحق تبارك وتعالى إلى حتمية العودة إلى الله، والرجوع إليه للحساب يوم القيامة.

وبعد فهذه هي سورة النور بموضوعاتها وأهدافها وخصائصها التي تناولتها، لتعطينا نموذجاً واضحاً من نماذج سور القرآن الكريم، الدالة على مدى ارتباط السور القرآنية بوحدة الموضوع، في تماسك وتناسق تام.

لقد أبانت هذه السورة الكريمة أن الإسلام منهاج حياة كامل، فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها، وفي كل علاقتها وارتباطها، وفي كل حركاتها وسكناتها، ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة، وينسق بينها جميعاً، ويتجه بها إلى الله في النهاية، وهذه السورة (النور) نموذج من ذلك التنسيق الفرد^(١).

(١) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٣١.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، كانت هذه محاضرات في التفسير الموضوعي، حاولنا فيها الاطلاع على أصل هذا اللون من التفسير وإبراز خصائصه وسماته فيما يتصل بالموضوع الواحد في القرآن الكريم، وقد كانت حتمية الموضوع، وطبيعة المنهج تفرض علينا أن تكون هذه الدراسة في شكل محاضرات نلقيها على طلاب المعرفة بصفة عامة، وطلاب العلوم القرآنية والتفسير بصفة خاصة.

وقد فرضت علينا منهجية الدراسة ومفردات المقررات في التفسير الموضوعي أن نتناول الدراسة بمقدمة تعريفية عن تاريخ تفسير القرآن الكريم منذ عهد الرسول الكريم ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم أئمة التابعين الذين تخرجوا في مدارس صحابة رسول الله ﷺ في التفسير في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة والكوفة، وتحدثنا في المقدمة عن أساليب التفسير المعروفة، التفسير التحليلي، والمقارن، والجمالي أو الإجمالي، والتفسير الموضوعي، وأشرنا في المقدمة إلى العناية الذي يجده دارس التفسير الموضوعي، وذلك لافتقار المكتبة الإسلامية لهذا اللون من التفسير، فالباحث لا يجد إلا اليسير المفرق هنا وهناك.

ومن هنا فقد اكتسب البحث أهمية في تناوله للتفسير الموضوعي بكل أنواعه، فقمنا في المحاضرة الأولى بتعريف التفسير الموضوعي لغة واصطلاحاً، فالتفسير الموضوعي عبارة عن جمع الآيات القرآنية التي

تحدث عن موضوع واحد مشتركة في الهدف، فهو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال آيات أو سورة أو أكثر.

وتكلمنا عن نشأة التفسير الموضوعي وتطوره، الذي بدأ مع نزول القرآن على النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، وإن لم يكن معروفاً بهذا المصطلح، وقد بدأ ظهور هذا المصطلح في القرن الرابع عشر الهجري، والمثال على ذلك تفسير آيات الأحكام، والدراسات اللغوية الموضوعية للقرآن الكريم كأمثال القرآن، والأشباه والنظائر، واستمر الأمر كذلك إلى عصرنا الحاضر حيث توجهت أنظار علماء القرآن والباحثين في شتى ضروب المعرفة إلى هدايات القرآن في الاقتصاد والاجتماع، والعلوم الكونية، بالإضافة إلى النماذج القديمة كما فعل ابن كثير، رحمه الله، فنجده يجمع كثيراً من الآيات التي تتحدث عن موضوع واحد، كما فعل في الآيات التي ضرب فيها المثل.

ومن ثم تطور التفسير الموضوعي حتى أصبح علماً يبحث فيه الباحثون عن كل ما يتعلق بموضوعات القرآن الكريم، كما فعل الجاحظ في إعجاز القرآن، وابن قيم الجوزية في أقسام القرآن، والبقاعي في تناسب الآيات والسور، فأسهمت كل تلك المؤلفات بشكل فاعل في نشأة التفسير الموضوعي.

وتحدثنا عن أنواع التفسير الموضوعي الثلاثة: كلمات القرآن من جمع الآيات التي تحدثت عن كلمة معينة واستعمالات القرآن الكريم لها، وجمع الآيات القرآنية التي تتناول قضية واحدة بأساليب مختلفة عرضاً وتحليلاً، وتحديد الموضوع الذي تتناوله سورة قرآنية واحدة ثم دراسة هذا الموضوع من خلال تلك السورة.

وتكلمنا عن العلاقة بين التفسير الموضوعي وأنواع التفسير الأخرى من

تفسير تحليلي، وإجمالي ومقارن، وأثبتنا أنه لا غنى للباحث في التفسير الموضوعي عن أنواع التفسير الأخرى، لأن التفسير الموضوعي هو ثمرة أساليب التفسير مجمعة.

وتناولنا أهمية التفسير الموضوعي الذي يستطيع الباحث من خلاله أن يبرز جوانب جديدة من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه، وتكمن أهمية التفسير الموضوعي أيضاً في تأهيل الدراسات القرآنية وتصحيح مسارها، لأن التفسير الموضوعي يعطي مدأً جديداً لانتشار تعاليم هدى القرآن، كما يتيح الفرصة للدارسين في مختلف التخصصات من فهم القرآن الكريم.

وأبنا معنى الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، فالسورة الواحدة مهما تعددت قضاياها تكون قضية واحدة، فتهدف إلى غرض واحد، وبحث تسلسل الموضوع في السورة الواحدة يقود إلى الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم من خلال سوره وآياته، فالمراد بالوحدة الموضوعية اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثراً فيؤلف وحدة موضوعية كاملة، وبعبارة أخرى البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام، كموضوع الربا أو القتال أو الخمر وتحريمه في القرآن الكريم.

وتناولنا أمثلة لمنهج الوحدة الموضوعية وبحثها من خلال القرآن الكريم، وتمثل ذلك في الآيات المتفرقة مثل (صفات الأنبياء في القرآن الكريم) أو في سورة واحدة (الوحدة الموضوعية في سورة يوسف) أو الوحدة الموضوعية في السور القصيرة (كسورة الإخلاص التي تناولت موضوع الوحدانية).

أما المحاضرة الثالثة فكانت في موضوع الولاء والبراء في القرآن الكريم، فتناولنا معنى الولاء والبراء لغة واصطلاحاً بداية من الجاهلية بجميع

مظاهرها من شرك ووثنية، والمفاصلة بين الكفر والإيمان، فالولاء والبراء من مقتضيات العقيدة ولوازمها كما تحدثنا آيات القرآن العظيم، ولا بد من وجوب موالة المؤمنين، وبالمقابل وجوب البراء من جميع أعداء الله وإظهار عداوتهم، ويشمل ذلك وجوب البراء من الكفار والمشركين، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن المنافقين، ووجوب البراء من المحادين لله ورسوله ولو كانوا ذوي القربى، وصور التولي المنهي عنه في القرآن الكريم من صور المحبة والمودة واتخاذهم أنصاراً وأعواناً، والإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر، والركون إليهم، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، وطاعتهم فيما يأمرون ويشيرون والتشبه بهم، وأبنا الفرق بين الموالة والمعاملة الحسنى.

وقد جاء منهج إبراهيم، عليه السلام، في الدعوة كما عرضه القرآن الكريم موضوع المحاضرة الرابعة، والتي تحدثنا فيها عن نشأة إبراهيم، عليه السلام، وصفاته الكريمة، وأثرها في الدعوة، والأساليب النظرية من مناظرة ومحاجة، ومعارض، واستعطاف، واستعارة الخصم، وأساليبه العملية التي تمثلت في القدوة، والبدء بالأهم، والبدء بالأقربين، واللين والشدة، والتحدي، والمفاصلة، والدعاء والتضرع إلى الله، وتخطيم الأصنام، والهجرة من مكان إلى مكان في سبيل الدعوة إلى الله، وبناء البيت العتيق، وامثال أمر الله بذبح ابنه إسماعيل، فقد كان إبراهيم عليه السلام، كما حدثتنا آيات القرآن إمام الموحدين وقدوة للمسلمين إلى يوم الدين.

أما منهج القرآن الكريم في إثبات عقيدة البعث، والمسالك التي سلكها القرآن من استدلال على البعث بالنشأة الأولى، وخلق السماوات والأرض وما فيهما، والاستدلال بخروج النبات من الأرض، وغيرها من الدلائل العظيمة كقصة صاحب القرية، الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه، ولم يتغير طعامه طيلة تلك الفترة، وإحياء الطيور لإبراهيم، عليه السلام، بعد أن مزقها إرباً إرباً، وقصة الملأ من بني إسرائيل الذين أماتهم الله ثم أحياهم،

وقوم موسى السبعين الذين اختارهم الله، وقصة القتيل الذي ضرب بعضو من أعضاء البقرة فعادت إليه الحياة مرة أخرى، وإخراج النار من الشجر الأخضر، وحصول اليقظة بعد النوم، مع أن حكمة الله وعدله تقتضي البعث والجزاء، كان ذلك موضوع محاضرتنا الخامسة.

وتعرضنا لمكائد الشيطان وطرق الحذر منها كما عرضها القرآن الكريم في المحاضرة السادسة، وعلمنا كيف أن الشيطان أعاذنا الله منه يزين الباطل، ويسمي الأمور بغير اسمها، ويوعد ويمني الناس بوساوسه الخبيثة، ويظهر النصيح للإنسان وهو لا يريد ذلك، بل يتخذ وسيلة لإغوائه، وينسي الشيطان الإنسان الخير والصلاح، ويحاول تخويف المؤمنين من أوليائه، ويلقي الشبهات، ويتخذ من الخمر والميسر والسحر سلاحاً فتاكاً في هدم الإنسان، لكن الحق تبارك وتعالى أخبرنا في كتابه العزيز كيف نرد كيده ونحذر شره، وذلك بالالتزام بالكتاب والسنة، واللجوء إلى الله والاحتماء به، والاستعاذة منه بكثرة ذكر الله، أعاذنا الله منه.

ولقد خصصنا المحاضرة السابعة في الحديث عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحكمه، وعواقب إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من العذاب واللعن والطرده من رحمة الله، والصفات التي يجب أن يتصف بها الداعية من علم، وعمل، وصبر ورفق ولين، وتيسير وتبشير، ولذلك كله كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم قواعد الإسلام، ومن أهم الواجبات الدينية والتكاليف الشرعية.

أما الجهاد في سبيل الله في القرآن الكريم فقد تناولناه في المحاضرة الثامنة فقمنا بتعريفه لغة واصطلاحاً، ووضحنا حكمه، وفضل الجهاد والمجاهدين في القرآن الكريم، والأهداف التي من أجلها شرع القتال في القرآن، من رد اعتداء المعتدين، وإزالة الفتنة عن الناس، وحماية الدولة الإسلامية، وقتل الكافرين وإبادتهم.

وفي المحاضرة التاسعة قمنا بعرض الصلاة في القرآن الكريم، وتكلمنا على فرضيتها ومنزلتها، والخشوع فيها، وأثر الصلاة في حياة الفرد والمجتمع، والثواب العظيم الذي أعده الله تعالى لمقيمي الصلاة، والمداومين عليها، إنهم الوارثون، ليس إراثاً فانياً إنما الإرث الدائم الذي لا ينقطع الخالد، إنه الفردوس الأعلى في جنات الله.

ودرسنا بر الوالدين في القرآن وكيف أن القرآن اعتنى بالوالدين وأبان حقوقهما، والإحسان إليهما بالكلمة الطيبة، والتواضع ولين الجانب والدعاء لهما، وحدود طاعتهما في غير معصية الله، درسنا كل ذلك في المحاضرة العاشرة من هذا السفر.

وجاءت المحاضرة الحادية عشرة في الصبر في القرآن الكريم، فالصبر هو زاد المؤمن، الموصل لجنات الله، فحدد القرآن مجالاته المتعددة من قيام بالواجبات الدينية، ومخالطة الناس، والجهاد في سبيل الله، والدراسة والبحث العلمي، والصبر على بلاء الدنيا، وشرحنا فضل الصبر وثوابه، وضرب لنا القرآن الكريم نماذج رائعة للصبر، وذلك من خلال صبر الأنبياء الذين اخترنا منهم (محمداً ﷺ وإبراهيم وأيوب عليهما السلام) إنها نماذج خالدة يقتدي بها الصابرون المؤمنون إلى يوم القيامة.

أما أثر المعاصي على الأمم وكيف أن الله تعالى حذر منها في القرآن الكريم فقد كان موضوع محاضرتنا الثانية عشرة فالمعاصي سبب في زوال النعم، ومحو البركة من الأرض، وزوال الأمن، والعقوبة والهلاك، فالمعاصي والإصرار عليها والمجاهرة بها سبب رئيسي في عقوبة السماء إلى الأرض، حفظنا الله منها.

وأقمنا مثلاً تطبيقياً للوحدة الموضوعية لبعض سور القرآن الكريم، وذلك من خلال تفسير سورة تفسيراً موضوعياً تناولنا ذلك في المحاضرة

الثالثة عشرة والأخيرة التي ذكرناها في مقدمة البحث لتأتي (سورة النور) خاتمة لمحاضراتنا التي استمرت عاماً كاملاً بحول الله وقوته، فوقفنا بين يدي السورة مستعرضين سبب تسميتها بهذا الاسم، لكثرة ذكر النور فيها، متناولين خواص السورة وأهدافها، وموضوعاتها السبع، التي تناولنا من خلالها منهجية هذه السورة المتكامل في تنظيم حياة الإنسان في تناسق آياتها عبر وحدة موضوعية شاملة.

وبعد فإننا نورد جملة من التوصيات من خلال هذه الخاتمة، وهي نتيجة حتمية لدراستنا والتي كانت عبارة عن محاضرات في التفسير الموضوعي، فبعد الدراسة والبحث نوصي بالآتي:

أولاً: نوصي القائمين على أمر الجامعات والكليات الجامعية سواء أكانت حكومية أو أهلية بضرورة تدريس مادة (التفسير الموضوعي) بكافة الكليات الجامعية، وعلى اختلاف تخصصاتها، لحاجة كل مسلم لفهم كتاب الله حتى يبلغه للناس كافة، فواجب الدعوة إلى دين الله وإن أوكل القيام به للمختصين في العلوم الشرعية إلا أنه لا يعفي من المسؤولية الأطباء والفيزيائيين، والمهندسين والزراعيين، والطيارين، وغيرهم من مختلف ضروب العلم والمعرفة.

ثانياً: كما نوصي كليات الدراسات العليا خاصة أقسام الكتاب والسنة، والتفسير وعلوم القرآن الكريم، على اختلاف المسميات من جامعة إلى أخرى بتشجيع البحث العلمي في مجال التفسير الموضوعي حتى يهتم الباحثون وتظهر إبداعاتهم في هذا الجانب الهام من أساليب تفسير القرآن الكريم.

ثالثاً: ندعو ونكرر الدعوة إلى الزملاء المختصين من أصحاب الفضيلة علماء التفسير خاصة أساتذة الجامعات إلى المزيد من البحث في مجال

التفسير الموضوعي حتى نثري المكتبة الإسلامية بهذا اللون من التفسير الذي نفتقر إليه كثيراً.

رابعاً: نوصي دور النشر وأصحاب المطابع في بلاد الإسلام بتنشيط طباعة الكتاب الإسلامي، بصفة خاصة ما يكتب في مجال التفسير حتى يؤدي ذلك إلى تنشيط الباحثين في مجال العلوم الإسلامية.

وأخيراً: أسأل الله رب العالمين أن يجعل هذا الجهد المتواضع خدمة لكتابه العزيز في ميزان حسناتنا، وأن ينفع به إخواننا من طلاب العلم في كل مكان، هذا والله تعالى أعلى وأعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وقد كان الفراغ من كتابة هذا البحث في الساعات الأولى من صبيحة يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان المبارك من عام ألف وأربع مئة واحد وعشرين الموافق له التاسع والعشرون من شهر نوفمبر من العام ألفين في مدينة بيشة بالمملكة العربية السعودية.

كتبه الفقير إلى الله الراجي عفو ربه

د. عباس عوض الله عباس بخيت الهمشري

أستاذ التفسير المشارك وعلوم القرآن الكريم بجامعة أم درمان

الإسلامية وكلية المعلمين في بيشة

المصادر والمراجع^(١)

- القرآن الكريم
- ١- دراسات في علوم القرآن الكريم، د. فهد الرومي، طباعة مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
 - ٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل، طباعة المكتب الإسلامي ١٣٩٨هـ.
 - ٣- صحيح مسلم بشرح النووي، طباعة مكتبة الجندي - مصر.
 - ٤- بحوث في أصول التفسير ومناهجه للدكتور فهد الرومي، طباعة مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ.
 - ٥- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني.
 - ٦- دراسات في التفسير الموضوعي، د. زاهر الألعي.
 - ٧- المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبد الستار سعيد.
 - ٨- مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم.
 - ٩- التفسير الموضوعي، د. محمود قاسم.
 - ١٠- صحيح البخاري، طباعة دار المعرفة - بيروت لبنان.
 - ١١- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية تحقيق عدنان زرور.
 - ١٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، طباعة دار ابن كثير، دمشق.
 - ١٣- دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، د. أحمد جمال العمري.
 - ١٤- مجلة الأزهر الشريف عدد رمضان ١٣٧٧هـ.
 - ١٥- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام، د. حسن محمد باجودة، طباعة دار الكتب الحديثة القاهرة.
 - ١٦- الموافقات للإمام الشاطبي، طباعة البابي الحلبي وشركاه مصر.
 - ١٧- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، د. محمود محمد حجازي، طباعة دار الكتب الحديثة مصر.
 - ١٨- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
 - ١٩- الوحدة الموضوعية في سورة الأنعام، رسالة دكتوراه د. عباس عوض الله عباس.
 - ٢٠- التفسير الموضوعي، د. أحمد السيد الكومي، طباعة دار الهدى مصر ١٩٨٠م.
 - ٢١- لسان العرب لابن منظور.
 - ٢٢- القاموس المحيط للفيروزآبادي.
 - ٢٣- المصباح المنير للفيومي.
 - ٢٤- كتاب الإيمان لنعيم يس.
 - ٢٥- الولاء والبراء في الإسلام للشيخ محمد سعيد القحطاني، طباعة دار طيبة السعودية، ١٤١٧هـ.
 - ٢٦- جامع البيان لمحمد بن جرير الطبري.

(١) المصادر والمراجع مرتبة حسب أسبقيتها في صفحات الكتاب.

- ٢٧- في ظلال القرآن، سيد قطب، طباعة دار الشروق، بيروت، مصر.
- ٢٨- الاحتجاج بالقدر لشيخ الإسلام ابن تيمية، طباعة المكتب الإسلامي ١٣٩٣هـ.
- ٢٩- الجامع الصغير للسيوطي.
- ٣٠- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) للشيخ محمد رشيد رضا، طباعة دار المعرفة - بيروت، لبنان.
- ٣١- محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي، طباعة دار الفكر - بيروت، ١٣٩٨هـ.
- ٣٢- التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي، طباعة دار الفكر، بيروت - دمشق، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- ٣٣- التفسير الميسر إعداد نخبة من العلماء، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة ١٤١٨هـ.
- ٣٤- مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان جمعة ضميرية، طباعة مكتبة السوادي جدة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- ٣٥- قصص الأنبياء، الشيخ عبد الوهاب النجار.
- ٣٦- التنبيه والإشراف للمسعودي، طباعة مصر ١٩٣٨م.
- ٣٧- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، طباعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان.
- ٣٨- حياة إبراهيم، محمود شلبي، طباعة دار الجليل - بيروت ١٩٨٤م.
- ٣٩- فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني، طباعة دار الحديث مصر ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- ٤١- كتاب التوحيد، د. صالح فوزان الفوزان، طباعة مكتبة الأثير الرياض.
- ٤١- أضواء البيان في تفسير القرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، طباعة عالم الكتب - بيروت.
- ٤٢- مسائل من فقه الكتاب والسنة، د. عمر سليمان الأشقر، طباعة دار النفائس الأردن.
- ٤٣- مناظرات مع الشيطان (مناظرات أئمة السلف مع حزب إبليس) لأبي أسامة سليم بن عبيد الهلالي، طباعة ابن الجوزي ١٤١٤هـ.
- ٤٤- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية.
- ٤٥- مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية، مكتبة محمد علي صبيح، مصر.
- ٤٦- تفسير القرآن الكريم للإمام محمود شلتوت، طباعة دار الشروق، بيروت ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- ٤٧- الحسبة في الإسلام لشيخ الإسلام ابن تيمية، طباعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- ٤٨- إحياء علوم الدين للغزالي.
- ٤٩- المحلى لابن حزم الظاهري.
- ٥٠- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبو بكر الخلال.
- ٥١- الجهاد للدكتور محمد نعيم ياسين، طباعة مكتبة الأقصى الأردن ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

- ٥٢- قطر الندى وبل الصدى لأبي عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- ٥٣- إرشاد الساري للقسطلاني.
- ٥٤- الجهاد في الإسلام للشيخ صالح اللحيدان، طباعة دار اللواء، الرياض ١٣٩٧هـ.
- ٥٥- أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، د. علي بن نفيح العلياني، طباعة دار طيبة، الرياض ١٤١٦هـ.
- ٥٦- السير الكبير للشيباني، طباعة دار الحديث - مصر.
- ٥٧- أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية، طباعة دار ابن القيم - دمشق.
- ٥٨- كتاب الأم للإمام الشافعي، طباعة دار المعرفة، بيروت.
- ٥٩- هذا الدين، سيد قطب، طباعة دار الشروق - بيروت.
- ٦٠- أحكام الصلاة والطهارة للشيخ محمد علي الصابوني، طباعة دار القرآن الكريم، بيروت ١٤١٨هـ.
- ٦١- الفقه على المذاهب الأربعة، عبد الرحمن الجزيري، طباعة دار الفكر - بيروت.
- ٦٢- تعليم الطهارة والصلاة للشيخ حسن أيوب، طباعة دار القلم الكويت.
- ٦٣- روح الصلاة في الإسلام، عفيف عبد الفتاح طيارة، دار العلم للملايين، بيروت.
- ٦٤- فقه السنة العبادات، سيد سابق، طباعة دار البيان - مصر.
- ٦٥- جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ لابن الأثير، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، مصر ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
- ٦٦- صحيح الترمذي.
- ٦٧- سنن أبي داود.
- ٦٨- الصبر في القرآن الكريم، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة مصر ١٤١٠هـ/ ١٩٨٠م.
- ٦٩- تفسير القرآن للشيخ عبد العزيز بن عبد السلام السليمي الدمشقي الشافعي، تحقيق د. عبد الله إبراهيم، طباعة المؤلف بدون الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- ٧٠- الفوائد للإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية، طباعة دار اليقين المنصورة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- ٧١- تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي طباعة دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٧٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية للإمام محمد بن علي الشوكاني، طباعة دار الفكر - بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- ٧٣- أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، د. عبد الله شحاته، طباعة الهيئة العامة للكتاب، مصر.
- ٧٤- الأمثال في القرآن، محمد بن الشريف، طباعة دار عكاظ جدة.

مستخلص

كتاب في التفسير الموضوعي، يجمع الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد فيفسرها معاً، ليعضد بعضها بعضاً.

جاء الكتاب على شكل محاضرات أُلقيت على طلاب الجامعة، بلغت ثلاث عشرة محاضرة غطت جوانب رئيسة في القرآن الكريم.

شملت المحاضرة الأولى تعريف التفسير الموضوعي ونشأته وتطوره وأنواعه وأهميته. وجاءت المحاضرة الثانية في الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم؛ تعريفها، ومعناها وأمثلة لها. ودخلت المحاضرة الثالثة إلى الموضوعات التي تتعلق بسور القرآن الكريم وآياته ذات الوحدة الموضوعية. وتضمنت عدة مباحث عن الولاء للمؤمنين والبراء من الكفرة. وتناولت المحاضرة الرابعة منهج إبراهيم عليه السلام في الدعوة، وفيها بعض صفاته وشمائله وأعماله. وشملت المحاضرة الخامسة عنوان منهج القرآن في إثبات عقيدة البعث بعد الموت. وأشارت المحاضرة السادسة إلى موضوع مكائد الشيطان للإنسان وطرق الحيلة والحذر كما عرفها القرآن الكريم. وتوقفت المحاضرة السابعة عند موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومكانته وعواقب إهماله. وعالجت المحاضرة الثامنة موضوع الجهاد في الإسلام من خلال سور القرآن الكريم وما يتعلق به من فضل المجاهدين وأهداف القتال ومكانة الشهداء. وتعلق موضوع المحاضرة التاسعة بالصلاة وأدلة فرضيتها ومترلتها وأثرها والخشوع فيها. وجعلت المحاضرة العاشرة برّ الوالدين موضوعها، فبينت حقوقهما وأهمية حسن معاملتهما وطاعتهما. واختصت المحاضرة الحادية عشرة بموضوع الصبر ومجالاته وأهمية التحلي به وثوابه. وتوفرت المحاضرة الثانية عشرة على موضوع أثر المعاصي في الأمم، وكيف أدى ذلك إلى عقوبتها. وكانت المحاضرة الأخيرة في التطبيق العملي للوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم.

Abstract

This book deals with the thematic interpretation of the Holy Qur'an. It compiles the Qur'anic Verses handling the same topic and interprets them as an integrated unit so as to solidify one another.

The book appears in the form of lectures given to the university students, which count thirteen in total covering the main aspects of the Holy Qur'an.

Lecture One includes the definition, origin, development, kinds and the importance of the thematic interpretation. *Lecture Two* turns up to discuss the thematic unity of the Holy Qur'an, its definition, meaning and examples thereon. *Lecture Three* plunges into the themes of the Surahs of the Holy Qur'an and the Verses with thematic unity in it. It also involves several researches handling loyalty to believers and disowning unbelievers. *Lecture Four* deals with Prophet Abraham's approach in his call and includes some of his qualities, attributes and works. *Lecture Five* contains a heading for the Qur'anic methodology of establishing the belief of resurrection after death. *Lecture Six* indicates Satan's plotting against the human and the ways of precaution and care of that evil creature in accordance with the way the Holy Qur'an discusses. *Lecture Seven* pauses at the topic of enjoining good and forbidding evil, its rank and the consequences of neglecting it. *Lecture Eight* tackles Jihad in Islam and the relevant topics of the virtue of the Mujahideen, the objectives of fighting and the rank of martyrs on the basis of the Surahs of the Holy Qur'an. The topic of *Lecture Nine* is related to prayer, the proofs of its being mandatory, its rank, its effect and humbleness in it. *Lecture Ten* makes a Muslim's being dutiful to his/her parents its topic of research stating parents' rights and the importance of doing good to them and obeying them. *Lecture eleven* is singled to discuss "patience", its fields, the importance of assimilating it and the reward thereof. *Lecture twelve* is made to discuss the effect of sins on communities, which resulted in getting them inflicted with punishment. The last, *Lecture Thirteen*, explains the practical application of the thematic unity in the Surahs of the Holy Qur'an.